عربٌ تنـصّروا
ومسيحيون تعرّبوا

- بحث في تاريخ المسيحية العربية -

بسام فرجو

livinghope@hotmail.de
basfar77@hotmail.com

2011/3/25

الفهرس

الصفحة

تمهيد...6

الباب الأول: المسيحية العربية – نشأتها وتطورها

الفصل الأول: من المسيح إلى قسطنطين 11

- حتمية إيمان العرب بالمسيح
- شهادات العهد الجديد
- شهادات ما بعد الرسل

الفصل الثاني: من ميلانو إلى مكة 17

- المرسوم القسطنطيني
- المذاهب المسيحية
- تغلغل المسيحية بين معظم قبائل العرب

الفصل الثالث: المسيحية بين عرب الشام 22

الفصل الرابع: عرب ما بين النهرين 25

الفصل الخامس: عرب الحيرة 27

الفصل السادس: عرب شبه الجزيرة العربية وأطرافها 30

- مكة والحجاز
- شرق الجزيرة
- اليمن

الباب الثاني: المسيحية العربية والإسلام

الفصل الأول: الإسلام، طائفة نصرانية لا دين جديد 39

الفصل الثاني: التكوين يسبق الوحي 42

الفصل الثالث: أثر النصرانية في المعرفة المحمدية...44

الفصل الرابع: أثر الإسلام في مسيحية العرب 49
- تحول الخطاب المحمدي
- إخضاع شبه الجزيرة العربية
الفصل الخامس: المسيحية تحت السيف 53
- سقوط العراق
- سلام لك ياسورية
- غزوا الجزيرة الفراتية
الفصل السادس: مصير المسيحيون العرب الأقحاح 57
- الاندثار
- الأسباب والعوامل

الباب الثالث: المسيحية المستعربة – أحوالها ومصيرها

الفصل الأول: ما بعد الفتوحات 63
- الوضع العام في ظل الإسلام
- تعريب البلدان وشعوبها
- نشاط المستعربين
الفصل الثاني: محطات في تاريخ المسيحية 67
الفصل الثالث: ميلاد طائفة جديدة 71
- مارتن لوثر والنهضة الروحية
- البروتستانت في بلاد العرب
الفصل الرابع: المسيحيون والانتماء البيئي والثقافي 74
الفصل الخامس: واقع الهجرة المسيحية ومسبباتها 77
الفصل السادس: الطائفية والحركة المسكونية 81
- الطائفية والطوائف في المسيحية العربية
- المسكونية و "كنيسة العرب"

الباب الرابع: المسيحيون العرب – دور وتراث

الفصل الأول: المسيحيون والإنجازات المنسية 88

الفصل الثاني: المسيحيون وأثرهم في لغة الضاد 90
الفصل الثالث: المسيحيون وأثرهم في الشعر العربي 92
الفصل الرابع: المسيحيون ومدارسهم العريقة 97
الفصل الخامس: المسيحيون، رواد العصر الذهبي 101
- البداية
- طائفة من العلماء والأدباء والمفكرين

الفصل السادس: المسيحيون واللاهوت العربي الدفاعي 107
الفصل السابع: المسيحيون، صانعوا النهضة الحديثة 113
الفصل الثامن: المسيحيون، رواد الصحافة 117
الفصل التاسع: المسيحيون العرب وكتابهم المقدس 122
- الكتاب في الجاهلية
- الترجمات من القرن الثامن وحتى يومنا

المراجع 129

تمهيد

كلمة في مضمون البحث

سادت عبر العصور محاولات شتى لطمس معالم المسيحية العربية وتغييبها عن الأذهان والوجود، والأغراض من ذلك تعددت في نفوس المغرضين. وقد دأبت المؤسسات الثقافية والتربوية والتعليمية في العالم العربي على سلب المسيحيين حقهم في التاريخ العربي، فجاءت مناهجها الدراسية منصبة كاملة في خانة الإسلام، مما حشا فكر الأجيال المتعاقبة بأن تاريخ العرب لم يكن يوما يخص سوى الإسلام والمسلمين.

ولم يزل إلى اليوم الصمت يحوم وسط المجتمع العربي بكل طبقاته حول الدور التاريخي للمسيحيين العرب، وهو صمت لا ينبع عن جهل بالتاريخ، بقدر ما هو تجاهل متعمد مصدره أولا وأخيرا الاستعلاء الديني. من هنا نبعت الضرورة إلى تسليط الضوء على المسيحية العربية، وإبراز دورها، وتوضيح علاقتها الأصيلة بالعرب والعروبة منذ نشأتها إلى الآن، بحسب ما ترويه بطون التاريخ، فنشأ هذا البحث المتواضع ناهلاً من علم الباحثين لأغراض ثلاث:

أ - التذكير بمسيحية العرب، لكي نبقيها في الأذهان ونمنع أجيالها الناشئة من مساوئ النسيان، لأن من نسى تاريخه وواقع أجداده نساه التاريخ.

ب - التعريف بدور المسيحية في نهضة العرب وترقية الفكر والآداب العربية، وهو دور لم تعط له مكانته المستحقة في التاريخ العربي.

ت - إعلامنا بحاضر المسيحية وواقعها ووجودها ومعاناتها وسط مجتمع عربي تسوده المرجعية الدينية.

في أقل حيز ممكن، وبصورة أقرب ما يمكن إلى الواقع سأحاول إعادة تركيب أحداث ووقائع من تاريخ المسيحية وحاضرها في جغرافية ما يعرف اليوم بالعالم العربي. وما أسوقه هنا من حقائق ما هو إلا غيض من فيض.

كلمة في المصطلحات

وليس من بد على حث القارئ أن يلقي بباله إلى مسألة المصطلحات المتداولة والمستخدمة في هذا البحث. فتارة يأتي الحديث عن "مسيحيون عرب"، وتارة أخرى عن "عرب مسيحيون"، وطوراً عن "نصارى". وهي مصطلحات يعسر علي في نطاق هذه الدراسة تعريفها أو رسم الحدود الفاصلة بينها. هنا مجرد توضيحات بسيطة لها:

1 - المسيحية العربية: عند الحديث عن المسيحيين العرب من حيث القومية أو التشكل ينبغي علينا توضيح المفهوم العام في هذا السياق، والنظر في المصطلحات المستخدمة، إذ قد أجاز بعض المسيحيين تسمية "عرب مسيحيون" بينما رفضوا مصطلح "مسيحيون عرب"، على خلفية تمايز في القومية والعرق بينهم وبين العرب.

وظني، أن لا خلاف بين التعبيرين عند العامة من الناس، واستعمالهما له ذات المدلول وهما يشيران إلى من دان بالمسيحية ضمن جغرافية العالم العربي. ولمن رغب التحديد، فإن تعبير "عربي مسيحي" يشير إلى تأصل المسيحي في تربة الحضارة والقومية والعصبية العربية، بينما يدل تعبير "مسيحي عربي" على انغراسه في بيئة لا ينتمي لها ديناً أو قومية، لكنه يشايعها ثقافياً.

وغني عن القول، أن مصطلح "المسيحية العربية"، عندما يرد ضمن الحديث عن عصر ما بعد الإسلام، فإن معانيه تقتصر غالبا على عروبة اللغة والبيئة الجغرافية والثقافية.

2 - المسيحية المشرقية: هو تعبير استعاضوا به عن "المسيحية العربية"، غالبا لفصل المسيحية عن العروبة. لكن توخيا في التدقيق ومنعا لكل التباس، نوضح بأن استخدامنا للمصطلح نعني به تحديداً كل كنائس العالم العربي وبلدان الشرق المجاورة له، ومن سكن تلك البلدان ودان بالمسيحية، بخلاف منشأ عقيدته وفكره، طالما إيمانه لا يتناقض مع الإيمان الأقدس القويم. ويحثنا على هذا الرأي:

أ - أن استخدام مصطلح "المسيحية المشرقية" فقط للإشارة إلى الكنائس المتجذرة في تربة الشرق، والتي نشأت مع المسيحية الأولى هو أمر لا يصح لأنه يقصي من دائرة هذا البحث كل ما هو دخيل على الشرق من اتجاهات فكرية مسيحية، كالكاثوليكية والبروتستانتية، التي لم تنبع من المشرق ولا تتبع مرجعيات تتمركز فيه.

ب - أن حصر هذا المصطلح بالمسيحيين المتواجدين ضمن ما يعرف اليوم بالعالم العربي فيه تجنب للصواب، لأن حضور بعض كنائس المشرق لا يقتصر على العالم العربي. فكنيسة المشرق الآشورية لها تمثيل قوي في إيران، ومثلها الكنيسة الرسولية الأرمنية، وكذلك الكنيسة السريانية، التي لها تمثيل في الهند وغيرها.

3 - النصرانية: يستخدم البعض هذا المصطلح للإشارة إلى الفرق التي تدين بالمسيحية. ويطلق في الشرق عموما لفظة "النصارى" على أتباع المسيح، ولفظة "التنصّر" على اعتناق المسيحية. والآراء في أصل هذا اللفظ مختلفة. فقيل:

أ - أن أصل اللفظ كلمة "نصرايا" السريانية وتطلق على مسيحيي الشرق.

ب - أن للفظ صلة بـ "الناصرة" المدينة التي أتى منها يسوع الناصري.

ت - أن أتباع المسيح أطلقوا هذا اللفظ على أنفسهم نسبة إلى قول القرآن "نحن أنصار الله".

ج - أن هذا اللفظ أطلق حصرا على فرق مسيحية زائفة كانت قد ظهرت في جزيرة العرب.

ليس غرضنا هنا تتبع أصول لفظ "النصرانية"، وإنما التوضيح، أنه رغم اختلاف الآراء في مصدره يبقى هنالك إجماع حول مدلوله الأساسي، ألا وهو: أتباع المسيح في الشرق والغرب بما فيهم العرب. وإذ تأتي هذه الألفاظ ضمن الاقتباسات الواردة في هذا البحث، نوردها كما هي كمرادف للمسيحية ومعتنقيها، بغض النظر عن موقفنا منها.

كلمة في المراجع

إنّ الحقيقة المتعلقة بالمسيحية العربية هي غير التي تدرس في كتب التاريخ المنهجية، التي لم يجاز لها تاريخا يتنافى مع التصور الإسلامي أو يضعف من صورته. هذه المنهجية خلقت عند الكثيرين قناعة بأن المسيحية دخيلة على الثقافة العربية وظاهرة مستوردة في بلادهم، وأنها اقتصرت قبل الإسلام على شعوب من أصول غير عربية.

في هذا البحث نضرب صفحاً عن المراجع البالية. ولمّا كان الاعتماد على المصادر الإسلامية ليس فيه الكفاية لإخراج تاريخ متتابع ومتماسك للمسيحية العربية قبل الإسلام وما بعده، نعتمد على الجانبين معا، المسيحي والإسلامي، ملقين البال على رأي الدكتور جواد علي بأن **"تاريخ المسيحية العربية ليس من الميسور كتابته دون الاستعانة بالمصادر المسيحية"** [1]، وقول الدكتورة سلوى بالحاج صالح، أن **"للمواد النصرانية أهمية كبيرة في تدوين تاريخ انتشار**

----

1 - تاريخ المسيحية العربية، الدكتورة سلوى بالحاج صالح، ص 8

النصرانية في بلاد العرب ... كما أنها تصحح شيئا مما ورد في الموارد العربية من أغلاط". [2]

لقد توجب، في سبيل تحرير تاريخنا الحبيس، الاعتماد على مراجع لعلماء وباحثين أرخوا في المسيحية العربية بصدق وحيادية وبضمير علمي حي معطين غاية الأهمية للمصادر والشهادات المسيحية، اليونانية والقبطية والسريانية. وقد أخذنا أيضاً ما ينصب في صالح التاريخ الحق مما ذكرته أمهات الكتب الإسلامية.

وبحثنا سوف يعتمد تسمية الأشياء بأسمائها، بعيدا عن أسلوب التودد الذي نهجه البعض ممن كتبوا في موضوع المسيحية العربية وأحوالها في المجتمع العربي الإسلامي، ويقيني أنه لولا واقع المجتمع والظروف الصعبة التي وجدوا فيها لما نهجوا إلى المحاباة.

----

2 - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الدكتور جواد علي، الفصل الثاني

الباب الأول

المسيحية العربية، نشأتها وتطورها

في هذا الباب:

يُقسم تاريخ العرب المسيحيين قبل الإسلام إلى حقبتين زمنيتين يفصل بينهما المرسوم القسطنطيني سنة 313 م.

الحقبة الأولى: وفيها الحديث عن مسيحية العرب الباكرة، وأن هذه المسيحية ليست مجرد فرضية محتملة، بل لها ما يدل عليها في الكتاب المقدس وفي تاريخ ما بعد رسل المسيح.

الحقبة الثانية: وفيها نبحث في انتشار المسيحية بين قبائل العرب داخل الجزيرة العربية وخارجها، وكيف أنها تطورت إلى مسيحية منظمة بشكل جيد.

الفصل الأول

من المسيح إلى قسطنطين

حتمية إيمان العرب بالمسيح

عرف العرب المسيح منذ الفجر الأول للكرازة الرسولية. فأحبوه واتبعوا ديانته ونادوا برسالته وتركوا آثاراً عميقة في التراث الديني والثقافي في عالمهم. هذه حقيقة ثابتة لا يتنازع عليها اثنان.

رأى بعض آباء الكنيسة، أمثال يوستينوس وترتليان وكبريانوس وأبيفانوس وذهبي الفم، أن العرب أول الذين التقوا بالمسيح، وأن بين المجوس الذين قدموا من المشرق لتقديم الهدايا للمولود العظيم عرباً، بالاستناد على ما جاء في النبوات **"تغطيك كثرة الجمال بكران مديان وعيفة كلها تأتي من شبا. تحمل ذهبا ولبانا وتبشر بتسابيح الرب"**، وأيضاً **"ملوك شبا وسبأ يقدمون هدية".**[3] وقد رسخ الاعتقاد عند علماء الكتاب، أن هذه النبوات تشمل العرب قبل غيرهم، فمديان وعيفة من قبائلهم، والجمال علامة تميزهم.[4]

يتفق جملة من المؤرخين على انعدام المصدر التاريخي اليقين على اتصالٍ باكرٍ للمسيحية بالعرب، وأن هذا التاريخ الباكر محاط بالغموض والإبهام، لم يترك لنا أهله وثائق تزودنا بالبيانات. فلوَّحوا عن عجزهم في تحديد زمن تغلغل المسيحية بين العرب، فقال جواد علي: **"ليس باستطاعتنا تعيين الزمن الذي دخلت فيه النصرانية إلى الجزيرة العربية".**[5] وقالت سلوى بالحاج: **"فإذا كان من الثابت أن المسيحية أصبح لها أتباعها بين القبائل العربية قبل مجيء الإسلام، فإن الصعوبة تكمن في ضبط بداية تشيّع هذه القبائل لتلك الديانة بدقة".**[6]

من المؤكد أن العرب لم يعرفوا المسيحية المنظمة قبل القرن الرابع، ولم يتمتعوا بهيكلية كهنوتية أو تشريعات كنسية وروحية خاصّة بهم، كتلك التي عرفها السريان والآشوريين والأرمن والقبط. ومن المرجح أن المسيحية العربية انتظمت بحلول القرن الرابع، على أثر الحرية التي منحها قسطنطين الملك، وهكذا بعد أن كانت المسيحية محصورة في بعض القبائل انتشرت وعرفت تطوراً هاماً من حيث الانتشار وعدد الأتباع شمل جميع أماكن التواجد العربي. لكن من الثابت أيضا، أن فلسطين ونواحي عديدة من البادية الشامية عرفت المسيحية في أزمنتها الباكرة، ولتأكيد ذلك أسوق أمامنا شهادات العهد الجديد وشهادات المؤرخين:

شهادات العهد الجديد على مسيحية العرب

رغم أن الأدلة الكتابية في هذا الشأن قليلة، وأن المؤرخون لا يأخذون بما توفر منها، فهي تبقى عند أهل الإيمان، الذين يتأملون فيها على ضوء مقاصد الله وإعلاناته، شهادات حية لها أهمية قصوى. فتؤكد الأناجيل وسفر أعمال الرسل على على الوجود العربي في قلب الحدث الإنجيلي ومعاينته للبشارة المسيحية منذ البدء. ومن الإشارات الإنجيلية التي يمكن الركون إليها في هذا الشأن:

----

3 - الكتاب المقدس- سفر اشعياء 60: 6 ، الكتاب المقدس- سفر المزامير 72: 10

4 – مديان هو ابن ابراهيم من زوجته قطورة (تكوين 25: 2). وكان عيفة أحد أبناءه ومنهم جاء المديانيون، الذين اختلطوا والإسماعيليين بالتزاوج، (تكوين 37: 25- 28 و 36، قضاة 8: 24). ويتفق معظم العلماء والمؤرخين علي أن "بلاد مديان" كانت تطلق أساساً علي المنطقة الواقعة شرقي خليج العقبة في شبه الجزيرة العربية.

5 - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الدكتور جواد علي، فصل 79

6 - المسيحية العربية وتطوراتها، سلوى بالحاج، ص 26- 27

1 - ذكر كتبة الإنجيل، أن من جملة الجموع المتقاطرة لسماع تعاليم المسيح أهل أدوم والمدن العشر وما وراء الأردن، "**فذاع خبره في جميع سورية**" [7]، بل ونقلوا أن المسيح نفسه عبر الأردن ومر بالمدن العشرة وصور وصيداء وصنع آياته في بقعة الجرجاسيين حيث كان العرب.[8] ومنه نستنتج، أن رسالة المسيح وصلت إلى بعض قبائل العرب القاطنة في فلسطين وجوارها.

2 - جاء في تاريخ أعمال الرسل الحديث عن أناس تجمهروا في أورشليم يوم العنصرة،[9] وعاينوا انسكاب الروح القدس على تلاميذ المسيح، الذين نطقوا بلغات شتى كانت العربية إحداها. وكان من بين الذين عاينوا هذا الحدث "**يهود ودخلاء كريتيون وعرب**". هؤلاء الممثلين لمللهم عاينوا عمل الله وحلول الروح القدس، وشاهدوا كيف "وقف بطرس مع الأحد عشر" تلميذاً ليقدم عظته الأولى، شاهدا للمسيح وعمل خلاصه، وكانت النتيجة أن "**قبلوا كلامه بفرح واعتمدوا وانضم في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف نفس**". [10] وليس من سبب يدعونا إلى استبعاد العرب من جملة الذين آمنوا في يوم العنصرة العظيم، لأن اختيار الله لهذا اليوم، الذي فيه تتجمع الملل والشعوب من كل حدب وصوب في أورشليم، ثم حلول الروح القدس على التلاميذ ونطقهم بشتى الألسنة، بحيث يتسنى لجميع الحضور سماع البشارة المسيحية بلغته الأم، هو عمل إلهي له مدلولات جوهرية لا يلم بها إلا العارفين بروح الرسالة الإنجيلية. من تلك المدلولات، أن البشارة المسيحية خصصت لجميع الأمم والشعوب وأنها تعطى لكل شعب بلغته التي ولد عليها. وعليه لابد أن يكون من بين العرب الذين أوجدهم الله في أورشليم لهذا الغرض من آمن بالبشارة ونقلها إلى بني ملته.

3 - ورد أيضا في تاريخ أعمال الرسل أن "**رجل حبشي خصي وزير لكنداكة ملكة الحبشة كان على جميع خزائنها، فهذا كان قد جاء إلى أورشليم ليسجد**" [11]. هذا أرسل الله إليه المبشر فيلبس ليبشره بالمسيح يسوع، فكان أن الخصي آمن واعتمد. قال بعض الآباء والمفسرين في الكنيسة السريانية أمثال مار أفرام السرياني، ومار يعقوب الرهوي، ومار ديونيسيوس ابن صليبي وغيرهم، أن الخصي الحبشي كان وزيرا لكنداكة ملكة سبأ، لا الحبشة، أي أنه كان حميرياً لا حبشياً.[12] وإن انعدمت الأدلة القطعية على هذه الأقوال، يبقى من الثابت أن الحبشة ("كوش" بحسب الكتاب المقدس) كانت تشكل جزءاً من المملكة الأثيوبية الممتدة إلى جنوب الجزيرة العربية ومصر. وأن الحبشة، أو كوش بحسب الكتاب المقدس، كانت تتضمن الجزء الجنوبي من الجزيرة العربية وبعض مناطق مصر. [13]

4 - حصلت للمسيحيين مضايقات عديدة أدت إلى تشتت التلاميذ في نواح عديدة، و "**الذين تشتتوا جالوا مبشرين بالكلمة**" [14]، وعليه لا يستبعد أن وصول البشارة إلى البادية الشامية، حيث توطنت قبائل عربية، لاسيما أن سفر الأعمال يعلمنا بوجود تلاميذ مسيحيين في دمشق، منهم حنانيا ويهوذا.[15]

----

7 - إنجيل متى 4: 24 – 25 ، إنجيل مرقس 3: 7، إنجيل لوقا 6: 17

8 - إنجيل متى 8: 28 - 31، إنجيل مرقس 7: 31

9 - يوم العنصرة أو يوم الخمسين، هو عيد يهودي ومسيحي. فيه يتذكر اليهود استلام موسى للوصايا والشريعة، وعند المسيحيين هو اليوم الخمسين من قيامة المسيح، وفيه ولدت الكنيسة بحلول الروح القدس على التلاميذ.

10 - الكتاب المقدس- سفر أعمال الرسل، الفصل الثاني

11 - الكتاب المقدس- سفر أعمال الرسل، الفصل الثامن

12 - الشهداء الحميريون العرب في الوثائق السريانية، البطريرك اغناطيوس يعقوب الثالث، الباب الأول. (الحميريون من القبائل العربية القديمة في جنوب الجزيرة العربية).

13 - المسيحية العربية- تاريخها وتراثها، الأب الدكتور ميشال نجم، ص 38، تفسير البرت بارنس لنص أعمال الرسل 8:

"Ethiopia" was one of the great kingdoms of Africa, part of which is now called Abyssinia. It is frequently mentioned in Scripture under the name of "Cush." But "Cush" comprehended a much larger region, including the southern part of Arabia... "There were two Ethiopia's, one in Arabia, but that lay east from Canaan; it should see this was Ethiopia in Africa, which lay south, beyond Egypt..."

14 - الكتاب المقدس - أعمال الرسل 8: 4

15 - الكتاب المقدس - أعمال الرسل 9: 20

5 - ثم تلى ذلك دور الرسول بولس في توصيل البشارة المسيحية إلى الأمم، ومنهم العرب. كان هذا بعد اضطهاد الملك الحارث لبولس،[16] إذ حين هم بالقبض عليه هرب إلى ديار العرب، أي بلاد الأنباط جنوبي دمشق وقواعدهم صلع وبصرى وصلخد والحجر وعاصمتهم البتراء. ويؤكد التاريخ على مسيحية هذه الديار، على الأخص في عهد الإمبراطور فيلبس العربي الحوراني الذي عُرف بتأييده للمسيحية، بل كان عند المؤرخ افسافيوس على دين المسيح. ويؤكد بولس حقيقة اتصاله بالعرب في قوله للغلاطيين "**انطلقت إلى العربية، ثم رجعت أيضا إلى دمشق**". [17]

لا يوضح بولس في أي منطقة من العربية أقام، أفي شمالها حيث كانت مملكة الأنباط تسود أم في عمقها. لكن رغم صعوبة التحقق من الأمر يعلن وصوله إلى العرب، وهذا ما يهمنا. ونظرا لمعرفتنا الشديدة برسول المسيح، لا نشك بأنه شهد لكل من صادفه عن نعمة الله المخلصة وعرّف العرب بالمسيح.

شهادات ما بعد عصر الرسل

يقول الدكتور القس جون لوريمر: "**هذه الحقبة هي الأكثر غموضا في تاريخ الكنيسة، وهي تبدأ من الوقت الذي ينتهي فيه سجل سفر الأعمال ... فقد مات الرسل الذين رأوا المسيح وعرفوه في أيام جسده، والمؤرخون خارج الكنيسة لا يعرفون إلا القليل جدا عنها وعن عقائدها**". [18]

وكما سبقت الإشارة، ليس ما يرصد لنا بالتحديد علاقة المسيحية ببلاد العرب في القرون الثلاثة الأولى للميلاد، لكن يمكننا أن نستنتج تغلغلها في بعض قبائلهم من شهادات عديدة على القرن الثاني والثالث. أما العوامل، التي ساعدت على هذا التغلغل، فكانت:

أ - انتشار رسل المسيح في أقطار المعمورة للتبشير، واستتباعا لذلك حصول القبائل العربية، القاطنة منذ أمد بعيد في منطقتي حوران وشرق الأردن، على نصيبها من البشارة المسيحية.

ب - قدوم العرب إلى فلسطين للتجارة والتبضع في أسواق نابلس السنوية، مما مهد للمبشرين تبليغهم الرسالة المسيحية.

ورغم أن الكنيسة في القرون الأولى كانت محاطة من كل جانب بالأخطار وتعمل في سرية تامة، لا يمكن نفي انتشارها المبكر بين العرب. ومن الأدلة على ذلك:

1 - جمع يوسف السمعاني في المجلد الثالث من مكتبته الشرقية شواهد عديدة باليونانية والسريانية تثبت كرازة الرسل بين عرب بادية الشام وطور سيناء واليمن والحجاز والعراق. من هؤلاء الرسل متى وبرتلماوس وتداوس وتوما. وقد تناقل العديد من الرواة أخبار المبشرين بين القبائل العربية وأتوا إلى ذكر فيلبس الشماس وتيمون. [19]

2 - تقول المصادر الإسلامية بوصول المسيحية إلى قلب الجزيرة بيد تلميذ المسيح برثلماوس، أو ابن ثلماء كما يسميه البعض. ففي تاريخ ابن خلدون، أن برثلماوس بُعث إلى الحجاز، وفي السيرة لابن هشام: "**قال ابن إسحاق: وكان من بعث عيسى ابن مريم عليه السلام من الحواريين والأتباع ... وابن ثلماء إلى الأعرابية، وهي أرض الحجاز**". وعن المقريزي، أن متى العشار: "**سار إلى فلسطين وصور وصيدا وبصرى**". [20]

----

16 - الكتاب المقدس - الرسالة الثانية إلى أهل كورنثوس، الفصل 11

17- الكتاب المقدس - الرسالة إلى أهل غلاطية، الفصل الاول

18 - تاريخ الكنيسة، جون لوريمر، ج 2 ص 49

19 - النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، الأب لويس شيخو، ج1 ص 23 و 29

20 - تاريخ ابن خلدون ج 2 /150، السيرة لابن هشام- باب: "خروج رسل رسول الله إلى الملوك - أسماء رسل عيسى"، المقريزي، كتاب الخطط والآثار ج 2 / 483

3 - وفي تاريخ هيبوليتس (170- 235) وجدول تورتاوس السوري، أن تيمون، احد المبشرين السبعين بشر أهل بُصرى والإقليم العربي. [21]

4 - يعدد القديس يوستينوس في مباحثته مع تريفون اليهودي من جملة المتعبدين للمسيح عرب البادية، رعاة المواشي وسكان الخيم. [22]

5 - وتأتي المراجع إلى ذكر بشر عبد يشوع القناني الناسك الذي عمد أهل اليمامة. فكان لأهل اليمامة أسقفية في قطر في بداية القرن الثالث، وتحديدا عام 225م.[23]

6 - وتشير المصادر السريانية إلى دخول المسيحية إلى شرق وجنوب شبه الجزيرة العربية قبل حلول القرن الرابع. فيقول البطريرك أفرام الأول برصوم، أنه في القرن الثالث ضُمّت نجران واليمامة إلى أبرشية أنشئت في قطر.[24]

7 - ساهم حريق روما وما تبعه من اضطهاد للمسيحيين وتدمير أورشليم سنة 70 م بشكل كبيرا في انتشار المسيحية، إذ تحولت بلاد العرب آنذاك ملجئاً آمناً للمسيحيين الهاربين من اضطهاد قياصرة الروم. وإذ كان المنفيون قد حلّو بين العرب سعوا بكل قواهم إلى تعريفهم بالبشارة المسيحية. يقول الدكتور محمد إبراهيم الفيومي: **"كانت هناك روافد حملت المسيحية إلى الجزيرة العربية بل ومكة ذاتها هي، الاضطهاد الذي وقع على المسيحية منذ المسيح ذاته جعل أتباعها يبحثون عن أماكن في كهوف الجبال وبطون الصحراء ليتواروا عن أعين الرقباء من الرومان".**[25]

8 - منذ سنة 244 لغاية سنة 249 كان على الكرسي الإمبراطوري في بلاد الشام مسيحي عربي من مواليد حوران لقب بـ "فيلبس العربي". في ذلك الزمان سمع بالمطران العربي ماكسيم البصري وبيريللوس أسقف العرب. ويسجل لنا التاريخ اتصال مطارنة الديار العربية بأوريجانوس والاستعانة به في ضحد بعض البدع المنتشرة عندهم آنذاك. [26]

مما تقدم نستنتج أن المسيحية انتشرت بين قبائل العرب قبل القرن الرابع، وحق لنا القول مع الأب لويس شيخو: **"لا نتعدى طورنا إن أكدنا انتشار النصرانية في بلاد العرب منذ عهد الرسل".** [27]

----

21 - شيخو، السابق، ج1 ص 29

22- شيخو،السابق، ج1 ص 25

23 - المسيحية العربية، تاريخها ونشأتها، الاب ميشال نجم ص 70.

24 - الدرر النفيسة في تاريخ الكنيسة، البطريرك أفرام الأول برصوم، ج 1 ص 390 عن: الشهداء الحميريون في الوثائق السريانية، ص 7

25 - الفكر الديني الجاهلي، د. محمد إبراهيم الفيومي، ص 91 – 92

26 – تاريخ الكنيسة، جون لوريمر ج 2 ص 59. المسيحية والحضارة العربية، الأب الدكتور جورج شحاته قنواتي، ص 45، لويس شيخو، مرجع سابق،ج1 ص 31 – 33

27 - شيخو، السابق،ج1 ص 23

الفصل الثاني

من ميلانو إلى مكة

المرسوم القسطنطيني

في دراستنا لهذه الحقبة الزمنية نحصر الكلام في مسيحية بلاد الشام والعراق والجزيرة العربية وجزيرة الفرات. فنستثني مصر لأن الهجرة العربية لم تشملها قبل الإسلام مما يجعلها خارج اهتمامنا.

حدت صعوبات جمة لاقتها المسيحية في القرون الثلاثة الأولى من تقدمها، فسارت سير السلحفاة بسبب وقوف الوثنيين واليهود لمقاومتها. زحفت لكنها لم تتعطل في سيرها، ومع بدايات القرن الرابع أخذت تتحرك بحرية وقوة أكثر.

أصدر الملك قسطنطين الكبير سنة 313 م. مرسوماً عُرف في التاريخ باسم "مرسوم ميلانو"، أعطى فيه للناس الحرية الدينية، وكانت النتيجة أن نَعِمت الكنيسة بالسلام ودخلت مرحلة ثانية من تاريخها. فامتدت إلى أطراف الشام الجنوبية ومختلف المناطق التي ترتفع فيها كثافة السكان العرب، حيث نشأت أسقفيات تكاثر عددها بشكل واضح بحلول القرن الخامس.

في هذا الجوّ من السلام النسبي والحرية الدينية، الذي عاشته كنيسة المشرق مدة ثلاثة قرون، جرت أحداث تاريخية كبرى، هي:

1 - تأسيس القسطنطينية، التي أصبحت بعدئذٍ عاصمة الدولة الرومانية الشرقية وعُرفت في التاريخ بـ "الدولة البيزنطية" أو "دولة الروم".

2 - تأسيس بطريركيات في القدس، وإنطاكيا ، والإسكندرية، والقسطنطينية.

3 - ازدهار الحياة الرهبانية، والتعاليم اللاهوتية، والطقوس الكنسية. وقد عرف الرهبان بكدهم ونشاطهم في تعريف العرب بالمسيحية، وفي بناء الأديرة التي ارتادها العرب في رحلاتهم التجارية في بلاد الشام والعراق والحجاز والنجد وجنوبي الجزيرة العربية وشرقها.

4 - التعمّق في فهم سر الثالوث الأقدس، وألوهية المسيح، مما أدى إلى نشوء العديد من المذاهب.

المذاهب المسيحية

كانت الكنيسة، وبسبب الاضطهادات في القرون الثلاثة الأولى، تكتفي في عرض المسيحية والتبشير بالأساسيات. ولمّا نعمت بالحرية انكب مفكريها على دراسة مضمون إيمانهم. إلاّ أن بعضهم أخطأ في السير الفكري، فنشأت جراء المفاهيم المغلوطة والتلاعب في الألفاظ مذاهب عديدة ساد البعض منها روح الهرطقة. وقد وصل الجدل في الأمور اللاهوتية إلى عامة المؤمنين، حتى أن القديس غريغوريوس النيصي قال: **"إذا سألت أي شخص عن تغيير العملة، ناقشك عما إذا كان الابن مولودا أو غير مولود، وإذا سألت عن جودة الخبز، أجابك أن الأب أعظم والابن أقل. فإذا اقترحت**

ضرورة الاستحمام، أخبرك أنه لم يكن هناك شيء قبل خلق الابن".[28]

لقد تميز المسيحيون في الشرق والغرب بشغفهم الزائد للمساجلات اللاهوتية، وقامت بينهم خلافات عميقة فيما يتصل بطبيعة المسيح ووحدة شخصه. فاختلفوا في أن للمسيح:

أ - طبيعتان وأقنومان (الديوفيزيقية).

ب - طبيعة واحدة إلهية، استحالت إليها الطبيعة البشرية بعد الاتحاد فاختلطتا وامتزجتا (المونوفيزيقية).

ت - طبيعتين وأقنوم واحد.

على أثرها انقسمت المسيحية إلى ثلاثة مذاهب رئيسية لعبت دورا حاسما في إيمان شعوب المشرق، ومنهم العرب. وقد تمثلت هذه المذاهب الثلاثة في الفرق التالية:

النساطرة.[29] وقد آمنوا بطبيعتين للمسيح، إلهية وبشرية، لكنهم ميزوا بينهما إلى حد الفصل، فلُقبوا "أصحاب الطبيعتين". والمسيح في فكرهم ولد إنسانا محضا ثم سكنته الألوهية ولازمته إلى حين صلبه ثم فارقته. فكان المتألم يسوع البشري بمعزل عن الألوهية. ومن تصريحات نسطوريوس الغريبة: أن **"مريم لم تحبل من الروح القدس في اللوجوس، لكن الروح القدس صاغ وكون من العذراء هيكلا يسكنه اللوجوس ... لم يكن الله نفسه لكن الله اتخذه لنفسه وبسبب الذي اتخذه، فان ذاك الذي قد أخذ يدعى أيضا الله"**. لكن من ناحية أخرى أعلن نسطوريوس إيمانه بكلي الطبيعتين، **"اللتين باتحادهما الأسمى والصافي بغير امتزاج لهما الإكرام في الشخص الواحد – الابن الوحيد".**[30] وعليه رأى البعض أن الحكم عليه بالهرطقة في مجمع أفسس جور مبالغ فيه، ولاسيما أن المجمع كان الأكثر اضطرابا وتحزبا بين المجامع الكنسية التي عقدت في القرون الأولى. أما نسطوريوس، فبعد نفيه إلى جزيرة العرب سجل سيرة حياته تحت عنوان "المأساة"، ويقال بأنها سيرة محزنة جدا تحرك عواطف كل من يقرأها.

اشتهر النساطرة بمدارسهم في الرها ونصيبين، ومنها انطلقوا بعملهم التبشيري المنظم والمرموق بين القبائل العربية وفي كل ربوع القارة الأسيوية. فانتشروا في العراق بين أهل الحيرة ومنها انتقلوا إلى قطر وجزر البحرين وعمان واليمامة واليمن. بل ووصلوا إلى مملكة التتر والمغول والهند وتركستان والتيبت والصين. **"وقد وجد في مدينة سينجان في الصين نقش على الحجر باللغتين السريانية والصينية يرجع عهدها إلى سنة 781 م".**[31]

اليعاقبة.[32] وبالمقابل قال اليعاقبة بالطبيعة الواحدة في المسيح. فمزجوا اللاهوت بالناسوت وجعلوا منه اقنوماً واحداً كانت الألوهية فيه غالبة. وراح اليعاقبة في القرن السادس ينافسون النساطرة في التأثير على القبائل العربية، وبشكل خاص على البدو الرحل. وقد لاقى مذهبهم انتشارا واسعا في سوريا والعراق والجزيرة الفراتية، وامتد إلى شبه الجزيرة العربية وجنوبها، حتى وصل إلى الهند. يقول ابن العبري، أن معظم نصارى العرب كانوا من اليعاقبة الذين لجئوا إلى بلاد العرب طلبا للحرية وهربا من الاضطهاد الذي ألم بالكنيسة الشرقية. ويقول جرجي زيدان: **"هم عامة أهل مصر ومعظم أهل الشام".**[33] ومن الفرق المسيحية التي تبنت مذهب الطبيعة الواحدة، الأقباط الأرثوذكس، والسريان الأرثوذكس، والأرمن الأرثوذكس والأحباش الأرثوذكس.

---

28 - تاريخ الكنيسة، جون لوريمر ج 3 : ص 101

29 - نسبة إلى نسطوريوس الأشوري أسقف القسطنطينية من 428 م إلى 431 م.

30 - تاريخ الكنيسة، جون لوريمر ج 3 ص 205 – 206

31 - عن كتاب "المسيحية والحضارة العربية" الأب الدكتور جورج شحاتة قنواتي ص 30، ويتحدث الدكتور القس جون لويمر عن مخطوط عثر عليه في دير بوذي كتبت عليه تسبحة للثالوث وميلاد اقنوم الابن. راجع "تاريخ الكنيسة"، جون لوريمر، ج5 ص 133 -134

32 - نسبة إلى مار يعقوب البرادعي السرياني من مواليد مدينة الأجمة قضاء نصيبين حوالي 500م.

33 - مقالة في الإسلام – جرجس سال، الجزء الأول "حقائق عن العرب في الجاهلية" ص 41، تاريخ التمدن الاسلامي - جرجي زيدان ج 5 ص 16

الملكانيون.[34] وهم أتباع عقيدة مجمع خلقيدونية التي تبناها الملك البيزنطي سنة 451 م. وكان هذا المجمع قد أعلن بأن للمسيح طبيعتين لا اختلاط بينهما ولا تجزؤ ولا انفصال ولا يمكن أن ينتفي اختلافهما بسبب اتحادهما. هو مسيح واحد وابن واحد ورب واحد، المولود الوحيد بطبيعتين غير ممتزجتين ولا متغيرتين ولا منقسمتين ولا منفصلتين. وقد انتشر المذهب الملكاني في شمال دمشق وحمص وقنسرين، وبصرى، والرصافة، وتدمر، وكانت لغة الملكانيين الطقسية اليونانية.

لم يحسم إقرار الإيمان الخلقيدوني الخلاف بالنسبة للكنيسة الشرقية. فقد استمر الصراع بين المذاهب الثلاثة، وكثر الجدل العقائدي وتفشى بين قادة الكنائس والأكليروس بمختلف درجاته ورتبه. لكن بعد قرون من المساجلات العقائدية تبين للكثيرين، أن الخلاف الأساسي كان محصورا فقط في الألفاظ والمفاهيم الفلسفية لا في المعاني الروحية الجوهرية. يقول الدكتور أنطوان فليفل: **"كثير من اللاهوتيين العرب في القرون الوسطى، أي اللاهوتيين المشرقيين الذين كتبوا باللغة العربيّة، أكانوا نساطرة، ملكيّين أو يعاقبة أجمعوا بالقول أنّ ما يميز المسيحيّين بعضهم عن بعض ليس المحتوى الإيماني، بل طريقة التعبير عنه... وأوعز البعض منهم الانقسام بين المسيحيين إلى "تورط الهوى" أو "العصبية"، "غمرات الجهل" و"حب التسلط".**[35]

تغلغل المسيحية بين معظم قبائل العرب

من الثوابت التي لا تقبل جدلاً، تنصر العديد من قبائل العرب قبل الإسلام، إما كلية أو بجزء كبير منها. وأن المسيحية لاقت انتشارا واسعا بينهم بعد النصف الأول من القرن الرابع، ثم تواصل انتشارها إلى أن تنظمت بكيفية ممتازة. فتغلغلت في سليح، وغسان، وبهراء التي قطنت في جهات حمص وتدمر، وقبائل البلقاء التي أطلق عليها المؤرخون اسم "المستعربة"، وبنو قيس من قبائل البحرين، وأهل الدومة، والحيرة، وبلاد الشام وباديتها، وفي أعدادا كبيرة من أشراف قبيلة كلب، وخاصة من بني كنانة. [36]

قال المؤرخ الألماني فلهاوزن بتنصر تميم وربيعة ومذحج. وقال اليعقوبي بتنصر أحياء العرب من قريش و طيء وبهراء. ونقل عن الإصطخري، أن تغلب بأرض الجزيرة وغسان وبهراء وتنوخ من اليمن بأرض الشام تنصروا. ونقل عن ابن خلدون أن قبيلة كلب القاطنة في دومة الجندل وتبوك دخلت في دين النصرانية**.** وشهد الجاحظ بتغلغل المسيحية بين الكثير من قبائل العرب وملوكها ومشاهيرها، وأنها كانت الغالبة على ملوك العرب وقبائلها، لخم وغسان وقضاعة وطيّ. وأكد المستطرف أن أهم القبائل التي تنصرت حمير وغسان وربيعة وتغلب وبهراء وتنوخ وبعض طيء وقضاعة وأهل نجران والحيرة.[37]

كان للتحالف السياسي شان في تاريخ بعض القبائل المسيحية المستوطنة أو المتنقلة على أطراف الجزيرة العربية، نتيجته نشأت في جانبي الصحراء السورية ممالك متعددة يمكن تقسيمها إلى فئتين. الفئة الأولى: عربية مسيحية متحالفة مع بلاد الروم، تتألف من التنوخيون، سكان بعض مناطق العراق، والصالحيون، الذين سادوا بادية الشام، والغساسنة آل جفنة، وهم استوطنوا بلاد حوران وشرقي الأردن وفينيقيا لبنان وفلسطين. الفئة الثانية: عربية مسيحية متحالفة مع بلاد الفرس وهي مملكة اللخميين أو مملكة المناذرة، الذين أسسوا دولتهم في الحيرة فعاشوا في حروب متواصلة مع الغساسنة لتحالفهم مع البلاط الفارسي لصيانة الحدود.[38]

---

34 - وقد سمّوا بالملكيين لأن الملك البيزنطي تبنى قرارت مجمع خلقيدونية ومن تبع هذا الملك صار ملكاني.

35 - الدكتور أنطوان فليفل، مقالة:"آفاق مسكونيّة مشرقيّة"، جريدة النهار 30.11.2008

36 - تاريخ المسيحية العربية، الدكتورة سلوى بالحاج، ص 33 – 44

37 - Julius Wellhausen, Reste arabischen Heidentums, 2 Auflage , Berlin 1897 S. 242، اليعقوبي 1/ 101 ، سلوى بالحاج، ص 42، كتاب "الحيوان" للجاحظ 7- 216 ، المستطرف، عن كتاب "مقالة في الإسلام"، جرجس سال، الجزء الأول ص 41

38 - المسيحية العربية- تاريخها وتراثها، الاب ميشال نجم ص 28 ، المسيحية والحضارة العربية، قنواتي ص 49

ازدهرت المسيحية في إمارة الغساسنة في سوريا، وفي مملكة اللخمين جنوب العراق، ومملكة الحميريين في اليمن، ثم انتشرت في كل أقصاع الجزيرة العربية. أما الكيفية التي انتشرت بها فكانت فذة ومعجزية ولم يكن لقوة السيف موضع فيها، بل كانت بشارة تعتمد على:

1 - إرشاد الروح القدس

2 - برهان المعجزات

3 - البذل والتضحية

4 - العلم و الطب والمنطق

5 - العمل في تطوير الحياة الاجتماعية

وتنقل لنا أخبار الكنيسة، ولاسيما السريانية منها، الكثير مما صنعه الله بين العرب ومقدار التضحيات التي بذلها المبشرين والرهبان في سبيل تعريفهم بإنجيل المسيح. وتؤكد المصادر الإسلامية حقيقة انتشار الإنجيل بين العرب، غالبا بطرق معجزية.

أوجز الدكتور جواد علي ما أوردته المصادر المتعددة في طبيعة الكرازة المسيحية بأجمل صورة. فقال:

"وإذا كانت اليهودية قد دخلت جزيرة العرب بالهجرة والتجارة، فإن دخول النصرانية اليها كان بالتبشير"..."وبفضل ما كان لكثير من المبشرين من علم ومن وقوف على الطب والمنطق ووسائل الإقناع وكيفية التأثير في النفوس، تمكنوا من اكتساب بعض سادات القبائل فأدخلوهم في دينهم... ومنهم من شفى بعض الملوك العرب من أمراض كانت به ... فدخلوا مواضع نائية في جزيرة العرب، ومنهم من رافقوا الأعراب، وعاشوا عيشتهم، وجاروهم في طراز حياتهم، فسكنوا معهم الخيام، حتى عرفوا ب "أساقفة الخيام" و "أساقفة المضارب"... "أدرك الرهبان والمبشرون أثر هذه الحالات المرضية، ولا سيما الأمراض النفسية منها في نفوس أولئك الرؤساء، وجلهم ممن درس الطب وقرا الكتب المؤلفة فيه ومارسه عملياً، فذهبوا بأنفسهم إلى القبائل للتبشير، وعالجوا الرؤساء معالجة نفسانية في الغالب، وأثروا فيهم، ونجحوا في مثل هذه الحالات في كسب عطفهم عليهم وتأييدهم لهم، وفي الدخول في جوارهم، للقيام بالتبشير. ونجد في النتف الباقية عن حياة المبشرين الذين بشروا بين العرب قصصاً من هذا النوع روي في معالجة بعض الرؤساء، يذكر أنهم نجحوا في معالجتهم وأن نجاحهم هذا هو كرامة ومعاجز قد تمت بفضل الله ومنّة المسيح". [39]

----

39 - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الدكتور جواد علي ، الفصل 79 والفصل 129 و الفصل 141

الفصل الثالث

المسيحية بين عرب الشام

امتدت المسيحية إلى أطراف الشام الجنوبية ومختلف المناطق التي ترتفع فيها كثافة السكان العرب. وقد تكونت بهذه المناطق أسقفيات عديدة منذ منتصف القرن الرابع. وما يؤكد هذا الرأي شهادة التاريخ الكنسي عن الأساقفة الذين شاركوا في جلسات المجامع المسكونية ووقعوا محاضرها باسم "أساقفة العرب". ومن الأساقفة العرب برخيوس الحاضر في مجمع سلوقية سنة 359 ، وثيوتيم في أنطاكيا سنة 336، وأسقف عرف باسم "بطرس"، هو الذي وقع في مجمع أفسس بصفة "أسقف محلة العرب"، ويعتقد بأنه ذات الشخص الذي وقع في مجمع خلقيدونيا باسم "بطرس أسقف المضارب". وقد كان بين أساقفة القدس، أسقف من أصل عربي، اسمه إلياس. كما أن مجمع القسطنطينية حضره خمسة أحبار من الإقليم العربي، أحبار بصرة ودرعا والسويدا وبراق وشيخ مسكين. [40]

كانت قبائل قضاعة أول القبائل التي هاجرت من الجزيرة العربية إلى بلاد الشام وتنصرت هناك. فيها قال اليعقوبي: **"دخلوا في دين النصرانية، فملكهم ملك الروم على من ببلاد الشام من العرب، فكان أول من ملك منهم: النعمان بن عمرو بن مالك".** [41] ويذكر المسعودي: **"كانت قضاعة أول من نزل الشام وانضموا إلى ملوك الروم فملكوهم بعد أن دخلوا في النصرانيّة".** [42]

ثم لحق بقضاعة قبائل أخرى، أشهرها غسان، التي نزحت من اليمن بعد انهيار سد مأرب في القرن الثالث واستوطنت البلقاء والبادية السورية، حوران ودرعا والجولان. كان يرأسها يومئذ جفنة بن عمرو بن عامر، الذي تنصر هو وسائر من معه وأقاموا هناك مملكة تابعة للروم.[43] وكان آل جفنة أعرق العرب حضارة، إذ أنشأوا ثقافة عربية امتزجت بالعناصر السريانية واليونانية. علاوة على ذلك أتمّوا تنصير القبائل العربية الأخرى، كبني قضاعة، وربيعة وإياد وبني كلب وغيرهم.[44]

جاء عن أبي الفدا وغيره، أن جفنة بنى في الشام عدة قرى وقصور وحصون، وبنى ابنه عمرو بالشام أديرة كثيرة، منها دير حالى ودير أيوب ودير هند. كانت عاصمتهم تسمى بالسريانية حرتة، أي معسكر، والتي أصبحت في ما بعد بالعربية الحيرة.[45] وقد ذكر ابن العبري، أن الملك المنذر بن الحارث"منذر برحرت" كان نصرانياً وأن جنوده كانوا نصارى كذلك.[46] ويقال بأن الحارث هو الذي أمر ببناء كنيسة الرصافة الكبرى.

شاع بين العرب بشكل خاص المذهب اليعقوبي، فيتحدث الأب لويس شيخو عن وثيقة سريانية من القرن السادس وقع عليها 137 من رؤساء الأديرة في إقليم العربية الممتد من شرقي بلاد الشام إلى جهات الفرات، واستنادا على ما رواه ابن العبري، كانوا بجملتهم على المذهب اليعقوبي.[47] ويتضح لنا مما يحكيه التاريخ السرياني في أخبار يوحنا الأفسسي،

----

40 - النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، الأب لويس شيخو، ج 1 ص 34 ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام – الدكتور جواد علي ، الفصل 80
41 - تاريخ اليعقوبي 80/1
42 - المسعودي، مروج الذهب ج1 ص 421 ، أيضا: النصرانية وآدابها، لويس شيخو، ج1 ص 29 – 30
43 - سيرة ابن هشام – الجزء الأول- عمرو بن عامر في خروجه من اليمن، تاريخ اليعقوبي 79/1 – 80
44 - المسيحية العربية، تاريخها وتراثها – الاب ميشال نجم، ص 112
45 - المسيحية والحضارة العربية، الأب الدكتور جورج شحاته قنواتي، ص 49، تاريخ سوريا الدنيوي والديني – المطران يوسف دبس، ص 33
46 - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام – الدكتور جواد علي ، الفصل 38
47 - النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، الأب لويس شيخو، ج1 ص 105- 106

طبيعة العلاقة العميقة للراهب يعقوب البرادعي مع ملك الغساسنة الحارث الخامس، وأنه تأسست منذ سنة 543 م أسقفية عربية يعقوبية هي "أسقفية غسان".[48] وكذلك الأمر في المصادر الكنسية، شهادات مميزة عن المنذر بن الحارث أمير الغساسنة، وأهمها توقيع سرجيس رئيس دير عوقبثا على رسالة تدين مخالفي الفكر اليعقوبي. يقول نص التوقيع: **"أمضيت بدلا من القس مار أوسطت نائبي وهو قسيس بيعة المنذر المجيد المحب للمسيح"**.[49]

انهزم البيزنطيون أمام الفرس سنة 580، فحملوا المسؤولية للمنذر بن الحارث ونفوه إلى صقلية، ثم نفوا ابنه من بعده. على إثرها انقسم الغساسنة إلى فرق كثيرة ونزح بعضهم إلى العراق. لكنهم حافظوا على وجودهم القوي في الشام، إذ أن المصادر العربية تحدثت عن وجودهم ونصرانيتهم عند مجيء الإسلام، وكان يومئذ جبلة بن الأيهم أميراً عليهم، وهو من مدحه وأهله حسان بن ثابت بالقول:

لله در عصابة نادمتهم يوماً — بجلق، في الزمان الأول
بيض الوجوه كريمة أحسابهم — شم الأنوف من الطراز الأول

وأيضا:

ذاك مغنى لآل جفنة في الدير — وحق تصرف الأزمان
صلوات المسيح في ذلك الدير — دعاء القسيس والرهبان

كانت قبائل تنوخ من ضمن عرب سوريا في القرن الثالث ومن القبائل المتنقلة في البادية السورية. وثبتت مسيحيتها في كتب العرب والسريان، وامتدت إمارتهم على الطرف السوري ما بين دجلة والفرات، ثم رحلوا بعد اضطهاد الفرس لهم إلى شمال سوريا واستقروا في مناطق قنسرين وحلب. اشتهر من تنوخ أميرتهم ماوية، وتسمى "ماء السماء" لحسنها. ويحكي المؤرخ اليوناني سوزمين قصة ماوية في بلاد الشام ونزاعها مع اليونان حوالي 373م. فيذكر من الشروط التي وضعتها ماوية لمصالحة اليونان أن طالبتهم برسم الناسك موسى أسقفاً على عربها، وكان موسى ناسكاً من جنوب فلسطين لقب فيما بعد بـ "أسقف العرب".[50] وهو الأسقف الذي لعب دورا هاما في تبشير الممالك العربية. يذكر التاريخ من كنائس وأديرة التنوخيين، دير خناضرة في الحيرة، وكنيسة العرب في معرة النعمان، ودير النقيرة قرب المعرة، ودير العرب.

أما من جهة القبائل العربية المتواجدة ناحية فلسطين، فيأتي التاريخ على ذكر الناسك هيلاريون ونشاطه وتأثير حركته في تنصير تلك القبائل، وهي القبائل التي كانت تعبد "العزى".[51]

مما سيق نستدل، بأن عرب بلاد الشام وشرفاءهم وأمراءهم قد عرفوا المسيحية في وقت مبكر وآمنوا بها، وتشبعوا بثقافتها الروحية وشاركوا في مجامعها وحركاتها ومناقشاتها اللاهوتية. وقد كانت لهم في بعض المناطق أبرشيات خاصة بهم. لكن مما تجدر الإشارة إليه، أن مسيحيتهم ظلّت مرتبطة بالكنيسة السريانية والملكية ولم يشكلوا كياناً كنسياً خاصا.

----

48 - تاريخ المسيحية العربية، الدكتورة سلوى بالحاج، ص 36- 37

49 -
Wright, Catalogue of the Syriac manuscripts in the British Museum عن المسيحية العربية، سلوى بالحاج، ص 38

50 - تاريخ المسيحية العربية، الدكتورة سلوى بالحاج، ص 32، وأيضا الأرشمندريت اغناطيوس ديك، القبائل العربية المسيحيّة في بلاد الشام في عهد صدر الإسلام

51 - سلوى بالحاج ص 31

الفصل الرابع

عرب بلاد النـهرين

وتسمى أيضا "جزيرة الفرات"، وهي البلاد الواقعة بين دجلة شرقاً والفرات غرباً. استوطنها الأشوريين والسريان وشهدوا فيها أزهى عصور حضارتهم. فأنشأوا مدارسهم الشهيرة في نصيبين، والرها، وريش عينو (رأس العين)، وحرّان. وقد ذاع صيت مدنهم، تكريت، والموصل، ودنيسر، وآمد، وميافارقين، وسعرت، وماردين، والرقة، وقرقميش.

من أبرز قادة الجزيرة المسيحيين تاتيان من القرن الثاني، الذي تولى تنسيق الأناجيل فيما اشتهر بـ "الدياتسرون". واشتهر منهم كذلك مار يعقوب النصيبيني، ومار شمعون، ومار نرساي، ومار أفرام من القرن الرابع، الذي عمل على إعادة تنظيم مدرسة اللاهوت في مدينة الرها. ومنها خرجت الترجمة السريانية للكتاب المقدس والمعروفة بالبسيطة (فشيطتو).

انتشرت المسيحية بشكل سريع وغريب في مابين النهرين كما تصرح به الآثار التاريخية والكتابية، لكن المصادر اختلفت في كيفية دخولها إلى هناك، وفي من أدخلها. فقال البعض أن توما الرسول أدخل المسيحية إلى الجزيرة أولاً، وقال آخرون أنها دخلت مع آداي وماري، والبعض يرجح بارشابا. ويقول تقليد كنسي أن الإيمان المسيحي دخل هذه البلاد زمن المسيح، بالاستناد على اكتشاف المؤرخ المسيحي يوسابيوس لرسائل بين المسيح والأبجر الخامس أوكاما ملك اديسا (الرها). فيها يتوسل الأبجر من المسيح أن يأتي ويشفيه من مرضه. فرد عليه المسيح بأن طوَّب إيمانه ووعده بإرسال أحد تلاميذه.[52] لكن هذه الرواية تفتقد إلى سند تاريخي، ويبقى فقط من الثوابت، أن الأبجر الثامن (176 – 213) كان مسيحيا.

قدمت قبائل عربية إلى الجزيرة قبل الإسلام بقرون، منها طيئ وبكر وتغلب، وأياد، وتميم، وقضاعة. فتسمت باسمهم ديار ربيعة وديار مضر وديار بكر. وأطلق السريان على المنطقة الواقعة ما بين نصيبين ونهر دجلة تسمية "بيث أربايا"، أي "ديار العرب". والقبائل القاطنة هناك معظمها من ذرية نزار بن معد وإياد ومضر.[53]

تواجدت قبيلة تغلب على مشارق نهر الخابور، ويذكر التاريخ معارك طاحنة دارت بينهم وبين بكر مدة أربعين سنة، سميت "حرب البسوس". كان شاعر تغلب عدي بن ربيعة الملقب "المهلل"، جد عمر بن كلثوم وخال أمرؤ القيس، أحد المتسببين في الحرب، التي ابتدأها أخوه كليب بقتله ناقة لامرأة من بكر اسمها البسوس بنت منقذ. ولمّا قتله بني بكر انتقاما للناقة توعد عدي بالثأر لأخيه، فنشبت الحرب. من الأبطال الذين قتلوا فيها، عبد الحرث بن عبد المسيح، وسعدان بن عبد يسوع بن حرب،[54] وهي أسماء تدل على مسيحيتهم.

تقول التواريخ القديمة وتقاليد الكنيسة السريانية بتغلغل المسيحية بين معظم قبائل الجزيرة الفراتية، وأن هذه القبائل قد نالت قسطها من المسيحية المبكرة التي انتشرت هناك. فدانت بالمسيحية تغلب، وقبائل بكر في ديار بكر، و قبائل إياد، التي نزحت من الحجاز إلى الجزيرة واستوطنت الموصل وتكريت.[55]

----

52 - تاريخ الكنيسة، جون لوريمر، جزء 2 ص 16

53 - معجم البلدان، ياقوت الحموي ج 2 ص 1179 – 1180، أيضا: تاريخ ابن خلدون، ج1 ص 235

54 - الأغاني لأبي فرج الأصفهاني – ج24 ص 2642

55 - النصرانية وآدابها، شيخو، ج 1 ص 95 – 99، ميشال نجم، ص 62، سلوى بالحاج، ص 63

يعود الجزء الأكبر في تنصّر عرب الجزيرة إلى جهود الأسقف أحودمه اليعقوبي، الذي اشتهر بحماسه التبشيري بين العرب الرحل. بداية استقبلته القبائل العربية بالحجارة، إلى أن شفى يوما ابنة أحد رؤساء القبائل من مرضها، فعرف بينهم وصار مكرَّماً. وقد استطاع أحودمه بواسطة العجائب، التي صنعها بفضل قوة المسيح، أن يربح للمسيحية كثيرين منهم، وعلى أثر ذلك نشأت أسقفية بيث عربايا. وهو هدى بني تغلب في شمال الجزيرة،[56] وأسس "أسقفية عانا والعرب التغلبيين"، وكانت خاضعة لمفريان تكريت المهتمة بشؤون العرب البدو.

كان عرب البادية إذا تنصروا يحّجون إلى كنيسة مار سرجيوس في الرصافة قرب الرقة [57] ويطلبون المعمودية فيها. وكان مار سرجيوس موقرا جداً لدى العرب التغالبة، وفي بيت للأخطل، يقول:

لما رأونا والصليب طالعا ومار سرجيس وموتاً ناقعا
وأبصروا راياتنا لوامعا خلَّوا لنا راذان والمزارعا

----

56 - تاريخ المسيحية العربية، الدكتورة سلوى بالحاج، ص 62، المفصل في تاريخ العرب، جواد علي، فصل 37 ، القبائل العربية المسيحيّة، الأرشمندريت اغناطيوس ديك (مقالة)، صفحات مشرقة من تاريخ الأدب السرياني، البطريرك مار اغناطيوس زكا الأول عيواص (مقالة).
57 - فيليب دي طرازي، عصر السريان الذهبي، ص 41، النصرانية وآدابها، لويس شيخو، ص 104

الفصل الخامس

عرب الحيرة

تُبيّن المصادر العربية والسريانية، بدء الاستيطان العربي بالعراق بشكله القبلي في بداية القرن الثالث، نتيجة هجرات متتالية بانتشار التنوخيين بين الحيرة والأنبار ثم عقبهم اللخميين ملوك الحيرة. فيقول القزويني: **"وكانت الحيرة منزل ملوك بني لخم وهم كانوا ملوك العرب في قديم الزمان".** [58] بعدها التحقت بهم قبائل إياد، الذين سكنوا الأنبار وعين تمر وتكريت. ويشير الطبري إلى حضورهم في مدينة تكريت بين صفوف المدافعين عنها ضد هجمات العرب المسلمين. [59]

كان للمسيحية المتأصلة في الشمال الشرقي من الرافدين، في الرها ونصيبين وإربل وجنديسابور وسلوقية طيسفون، التي أصبحت فيما بعد مركزاً لبطاركة "النساطرة"، كان لها الفضل في توصيل بشارة الإنجيل إلى الجنوب العراقي، حيث عرف عرب الحيرة المسيحيين بـ "العباد". لكن رغم نشاطهم التبشيري وتواجدهم القوي في الحيرة، لم يكترث النساطرة للتوسع كثيراً بين العرب البدو، إلى أن قامت الكنيسة اليعقوبية بحركة تبشيرية منظّمة قادها الراهب أحودمه بين البدو المنتشرين بين الحيرة والأنبار، ونجحت الحركة في تنصير معظم العرب القاطنين في مدينة عاقولا (الكوفة).

إن المعلومات تشير إلى الوجود المسيحي في الحيرة في عهد عمروا بن عدي من القرن الثالث، وقد خلفه من مشاهير اللخميين امرؤ القيس، ثاني ملوك الدولة اللخمية، الذي لُقب بملك العرب وله اثر فريد على منقوشة حجرية عثر عليها في عاديات كنيسة في الأقليم العربي كتب في مطلعها: **"هنا قبر أمرؤ القيس بن عمرو، ملك العرب".** [60]

اعتنق المسيحية في أواخر القرن السادس الملك النعمان أبو قابوس. ويعود الفضل في تنصيره إلى الشاعر المسيحي عدي بن زيد. يقول أبي الفدا: **"ليس النعمان أول من تنصر من ملوك الحيرة فقد كان جده المنذر نصرانيا وبنى الكنائس العظيمة في دار ملكه".** [61]

ولعل من العوامل التي ساهمت في انتشار المسيحية بين عرب الحيرة وجنوب العراق، الأسرى المسيحيين الذين أسرهم شابور الأول الفارسي خلال حملاته على الامبراطورية الرومانية، ومن بينهم أساقفة وبطاركة. هؤلاء جاء بهم شابور من أنطاكيا وأسكنهم في منطقة بابل وأقصى جنوب العراق وعلى ضفاف الدجلة، فتمكنوا من نشر المسيحية في المملكة الفارسية وبناء الأديرة والكنائس والمراكز الأسقفية.

اشتهر من رجال الكنيسة في الحيرة شمعون الأرشمي، والراهب سمعان العمودي، الذي قصده العرب من كل حدب وصوب لنيل البركة والشفاء. وفي عهده وافى الحيرة الراهب الشهير عبد يشوع وهو من الذين عززوا المسيحية في الحيرة والجنوب العراقي.

من كنائس وأديرة الحيرة وجنوب العراق، كنيسة بني مازن، ودير مرتا، ودير بني مرينا، ودير الجماجم، ودير عبد المسيح بن عمرو الغساني، ودير حنة، ودير ابن براق، ودير حنظلة بن عبد المسيح على حدود الجزيرة، ودير هند الكبرى

----

58 - آثار البلاد وأخبار العباد، زكريا بن محمد بن محمود القزويني، ص 175

59 - تاريخ المسيحية العربية، سلوى بالحاج، ص 47

60 - تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، ج1 ص 28، و المسيحية العربية- تاريخها وتراثها، الأب ميشال نجم، ص 82

61 - تقويم البلدان، أبي الفدا، عن: مقالة في الإسلام، جرجس سال، ج1 ص 43

ابنة الحارث. فيه نقشت عبارة تقول: "**بنت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر الملكة بنت الأملاك وأم الملك عمرو بن المنذر أمة المسيح ... في زمن مار أفرايم الأسقف فالإله الذي بنت له هذا الدير يغفر خطيئتها ويترحم عليها وعلى ولدها ويقبل بها وبقومها إلى إقامة الحق ويكون الله معها ومع ولدها الدهر الداهر**".[62]

وهند الصغرى ابنة الملك النعمان بن المنذر بنت ديرا وترهبت فيه بعد مقتل زوجها الشاعر المسيحي عدي بن زيد. من أشعارها:

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سوقة نتنصف
فتبا لدنيا لا يدوم نعيمها تقلب تارات بنا وتصرف

وعدي من شعراء الجاهلية وأشعاره تغنى بها العرب وجرت على كل لسان، وتعود جذوره إلى أمرؤ القيس بن زيد مناة بن تميم، فهو تميمي الأصل. من أبياته:

وأوتينا الملك والإنجيل نقرؤه نشفى بحكمه أحلامنا عللا
من غير ما حاجة إلا ليجعلنا فوق البرية أربابا كما فعلا

وشي به إلى النعمان فوضعه في السجن حيث اغتيل. وفي سجنه قال الأبيات:

أبلغ النعمان عني مألكاً أنه قد طال حبسي وانتظاري
وبغير الماء حلقي شرقٌ كنت كالغصان بالماء اعتصاري
ليت شعري عن دخيلٍ يفتري حيثما أدرك ليلي ونهاري
قاعداً يكر ب نفسي بثها وحراماً كان سجني واحتصاري
أجل نعمي ربها أولكم ودنوي كان منكم واصطهاري

ساهم عرب العراق والحيرة في نشر المسيحية وتقديم العون المادي والمعنوي للمبشرين وبناء الكنائس والأديرة. وكانت الكنيسة هناك تنطق بالعربية وتكتب بالسريانية. من أساقفتها هوشاع، الذي وقع في مجمع سلوقية باسم "أسقف حيرته". وآخر يدعى "أسقف العرب"، وثالث يدعى "أسقف العرب التغلبيين". وكان أسقف الحيرة زمن ظهور الإسلام عربيا يدعى عدي بن حنظلة من بني ملكان من تنوخ.[63]

وقد تشاركت الأنبار مع الحيرة في كونها أقدم المراكز التي انتشرت فيها المسيحية. من أساقفة الأنبار النساطرة، موسى وشمعا، وشمعون، وماري. ولمّا دخلها المذهب اليعقوبي صارت لليعاقبة أسقفية اسمها "أسقفية الأنبار وبني نمير"، نسبة إلى النمر بن قاسط.[64]

----

62 - معجم البلدان، ياقوت الحموي، ص 791
63 - مقالة في الإسلام، جرجس سال، ج1 ص 44 – 45، سلوى بالحاج، ص 58
64 - تاريخ ميخائيل الكبير ج 2 ص 416، سلوى بالحاج، ص 59

الفصل السادس

شبه الجزيرة العربية، وسطها وأطرافها

شرق الجزيرة العربية

من العوامل التي ساعدت على انتشار المسيحية في الجزيرة العربية انتشاراً واسعاً، أنها كانت وقتذاك محاطة بسوار من الدول والدويلات، كانت فيها المسيحية إما الديانة الرسمية أو الغالبة.

ويعتقد بأن المسيحية دخلت بداية إلى شرق الجزيرة من الحيرة شمالا، فوجدت سبيلاً إلى البحرين وقطر وهجر وبعض جزر الخليج. وساهم الاتصال الوثيق الذي لنصارى العربية الشرقية بأهل الحيرة في انتشار المذهب النسطوري في تلك البقاع. فتأتي المراجع إلى ذكر الراهب عبد يشوع القناني الذي عمّد أهل اليمامة، وقد عرف معظم أهلها من النصارى عند ظهور الإسلام. [65] وفي المراجع السريانية، أن عبد يشوع أنشأ في جنوبي قطر، ديرا باسم مار توما، زاره نحو سنة 390م. مار يونان الناسك أحد تلاميذ الراهب المصري مار أوجين؛ فوجده آهلا بمئتي راهب. وتذكر الكتب أسقف ديرين من جزائر البحرين، وكذلك إيليا أسقف سماهيج في عمان. وكان في بلاد البحرين أسقف يدعى إسحاق وآخر يدعى فوسي. [66]

اتبع النساطرة في التبشير نظم إدارية كنسية، فجعلوا في بيث قطريا (قطر) كرسياً مطرانياً خاضعا لبطريرك ساليق يشرف على إدارة خمسة أسقفيات. وقد اشتركت قبائل الكنديين بشكل فعلي في العمل التبشيري بين أبناء جنسهم العربي، وبشكل خاص في اليمامة، التي كان عليها هوذة بن علي الحنفي، أحد ملوك المسيحيين وذو مكانة عند العرب. ومن شعر للأعشى مدح به هوذة بن علي حاكم اليمامة، نستنتج انه كان مسيحيا أعان على تحرير وفك أسر بعض القوم من بني تميم. [67]

وقد انتشرت المسيحيّة في قبيلة أزد القحطانيّة وبني جرم من قضاعة ومنهم بنو ناجية الذين تنصروا بأكملهم. وتجمع كافة المصادر الإسلامية أن بني ناجية سكان عمان كانوا على دين النصرانية قبل الإسلام.

مكة والحجاز

دخلت المسيحية إلى وسط الجزيرة العربية وتغلغلت في معظم نواحيها ومدنها. فانتشرت في شرق الحجاز وهضبة النجد، في دومة الجندل، ومعان، وتيماء، وتبوك، وفي كل وادي القرى بين الشام والمدينة، المنطقة التي سكنتها قبائل قضاعة وكان فيها قوم من الرهبان ذكرهم الشاعر جفر بن سراقة:

فريقان رهبانٌ بأسفل ذي القرى وبالشام عرّافون فيمن تنصَّرا [68]

----

65 - المفصل في تاريخ العرب، جواد علي، فصل 79 وفصل 80 وفصل 166، والنصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، الأب لويس شيخو، ج 1 ص 72

66 - الشهداء الحميريون في الوثائق السريانية – البطريرك أغناطيوس يعقوب الثالث ص 7، المسيحية العربية، الاب ميشال نجم، ص 70، جواد علي، فصل 80، النصرانية وآدابها، الأب لويس شيخو، ج1 ص 71

67 - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الدكتور جواد علي، الفصل 33 و 44و 79و 141، تاريخ المسيحية العربية، الدكتورة سلوى بالحاج، ص 84

68 - النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، الأب لويس شيخو، ج1 ص 110

ثم تسربت بعض الأفكار المنحرفة عن المسيحية إلى مناطق عديدة في الجزيرة، كالحجاز ومكة. أما معظم هذه الأفكار فكانت تابعة لتيارات روحية سماها العرب بالنصرانية. وكانت لهذه الأفكار النصرانية آثار خصبة، اعتبرها البعض بمثابة الخميرة التي أعدت عرب الجزيرة إلى قبول الإسلام.

قام بمهمة التبشير بداية مسيحيون غير عرب، قدموا من بلاد مابين النهرين والشام. لكن ما لبث العرب أن انخرطوا بنجاح في الخدمة التبشيرية بعد أن تلقنوا العلوم في مدراس مسيحية على يد الرهبان. ومن القبائل العربية التي قامت بدور تبشيري مهم في وسط الجزيرة وشمالها بني آكل المرار من قبيلة كندة. وكان لبعض المبشرين الرهبان خيامهم، يرتحلون بها مع الأعراب من مكان إلى مكان ليخدموهم ويعلموهم ويشفوا مرضاهم، فعرفوا لذلك بـ "رهبان الخيام"، [69] كما وعُيّن على مسيحية الجزيرة رعاة وأساقفة يعتنون بأمورها.

نجحت الحملات التبشيرية بتنصير قبائل عربية كاملة بما في ذلك رؤساء القبائل ووجهاءها. يقول الدكتور كامل النجار: **"كانت النصرانية معروفة، قبل دخول الإسلام، في كل جزيرة العرب... ونجد أخبار الفتوح تشير إلى أسماء أمراء عرب كانوا على هذا الدين، يحكمون عدة مواضع من أعالي الحجاز".**[70] ويذكر ابن هشام أن من وفد تميم القادم على محمد زعيم اسمه الزبرقان بن بدر من مفاخر قبيلته بناء البيع (الكنائس). هذا قال للرسول أبيات شعرية منها:

نحن الكرام ولاحيٌّ يعادلنا منَّا الملوك وفينا تنصب البيع
وكم قسرنا من الأحياء كلهم عند النهاب وفضل العز يتبع

ومن تميم أيضا أسقف مسيحي يدعى محمد بن سفيان بن مجاشع، هو أحد الثلاثة الذين سمّوا محمد قبل مولد الرسول العربي، وتقول المصادر الإسلامية أن تسميتهم جاءت بناءا على نبوة أحد الرهبان بمبعث رسول الإسلام.[71]

وكان لمدينة إيلة (العقبة) أسقف اسمه يوحنا بن رؤبة، لقبه المسعودي بأسقف إيلة. وتواجد في يثرب جماعات مسيحية نزحت إليها إما بقصد التجارة أو بدافع التبشير، هؤلاء يذكرهم حسان بن ثابت ببيت شعري:

فرحت نصارى يثرب ويهودها لما توارى في الضريح المُلحد.

في تقويم قديم للكنيسة النسطورية، أن النساطرة أقاموا مطراناً في يثرب وكان لهم فيها ثلاثة كنائس. ويرى الأب لويس شيخو أن نصرانية الأوس والخزرج في يثرب ثابتة كونهم ينتسبون إلى الحارث ابن ثعلبة من بني غسان.[72]

تذكر أمهات الكتب الإسلامية بأن الأكيدر ملك دومة الجندل كان نصرانيا،[73] ومعظم سكان دومة الجندل ينتمون إلى قبائل قيدار الإسماعيلية وقبيلة سبأ وقبيلة كلب من قضاعة.

إن كتب السيرة تمتلئ بذكر القساوسة والرهبان والمبشرين والخطباء المسيحيين زمن محمد، مما يعطينا صورة جيّدة عن مدى انتشار النصارى والنصرانية في بلاد العرب في أواخر العصر الجاهلي وبداية ظهور الإسلام ولعل أشهر الخطباء قس بن ساعدة، الذي كان يعظ في سوق عكاظ قرب مكة. وتذكر المصادر خطبته: **"يا أيها الناس اجتمعوا واستمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبرا، مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور، وبحار لا تغور..."** [74]

----

69 - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الدكتور جواد علي ، الفصل 166

70 - قراءة نقدية للإسلام، د. كامل النجار، فصل 2

71 - شيخو، السابق، ج1 ص 126، أسد الغابة في معرفة الصحابة، حرف الميم

72 - شيخو، السابق، ج1 ص 114

73 - جواد علي، الفصل 44

74 - البداية والنهاية – ابن كثير، الجزء الثاني، ذكر قس بن ساعدة الإيادي

وكان للأديرة تأثيراً مهماً في تعريف التجار العرب والأعراب بالمسيحية. فيها وجد التجار ملاجئ لراحتهم ومحلات يتجهزون منها بالماء، الأمر الذي ساهم في توصيل الحقائق المسيحية إليهم. فلا شك بأن الحركة الرهبانية كانت، كما يصفها الدكتور محمد الفيومي، أهم الروافد التي **"حملت المسيحية إلى الجزيرة العربية بل ومكة ذاتها"**.[75]

وحازت مكة أيضا نصيبها من نصرانية أتتها بهبوب الرياح الفكرية من بلاد الشام. فيشهد شريف محمد هاشم عن دور الأديرة في نشر المسيحية بين العرب قائلا: **"كان لابد لكل آت من الشام أو راجع منها أن يمر بها لبعض الوقت، يقضيه بضيافتهم في جو من التعبئة النفسية والتثقيف النصراني...ولايسعنا إلا الاعتراف بأنه كان للرهبان فضل كبير بتحويل أولئك الشباب عن عبادة الصنام إلى عبادة قوة أخرى"**.[76]

وجب التأكيد، على أن المسيحية كانت قد تفشت في مكة، وهي وإن لم تكن قوية ومنظمة كحالها في المناطق الأخرى، فقد استطاعت اختراق بعض بطون قريش، بل ويؤكد الدكتور جمال الدين الخضور وجودها في جوف الكعبة ذاتها.[77]

ويشهد اليعقوبي في تاريخه دخول قومٍ من قريش للنصرانية، وخص بهم بني أسد، وهي شهادة هامة على اجتياح النصرانية لقبيلة نبيّ الإسلام، **"وأما من تنصر من أحياء العرب، فقوم من قريش من بني أسد بن عبد العزى ... ورقة بن نوفل"**.[78]وورقة هذا كان ابن عم خديجة زوجة محمد الأولى، وأصبح قساً ثم أسقفاً على شيعة النصارى. من أشعاره:

أدين لرب يستجيب ولا أرى   أدين لمن لا يسمع الدهر واعياً
أقول إذا صليت في كل بيعة   تباركتَ قد أكثرتُ باسمك داعياً [79]

ويذكر الأرزقي في كتابه "أخبار مكة"، أن أهل مكة لما جددوا بناء الكعبة، قبل مبعث محمد بخمس سنوات، رسموا على جدرانها صور الملائكة، والأنبياء، مع صور المسيح وأمه. وعند فتح مكّة، أمر محمد بطمس تلك الصور فطمست، لكنه وضع كفيه على صورة عيسى ابن مريم وأمه وقال: **"امحوا جميع الصور إلا ما تحت يدي"**. [80]ويرى البعض، أن هذه الصور والنقوش في الكعبة تشبه الآثار النصرانية الكثيرة الموجودة في "بيوت العماد" المسيحية في فلسطين.

استدل الأب لويس شيخو من الخبر المروى عن تلك الصور، كما من بيت شعري لعدي بن زيد يقول فيه: **"سعى الأعداء لا يألون شراً - عليك ورب مكة والصليب"**على أنها دليل على نصرانية مكة، وأن البيت هو في الأصل كنيسة أقامها النصارى بعد المسيح بعهد قليل ووضعوا فيها صور الأنبياء والمسيح ومريم وكانوا يحّجون إليها ويقدسونها. ولذا أقسم بها عدي، وأقسم بها الأعشى قائلا: [81]

حلفت بثوب راهب الدير والتـي بناها قصيٌ والمضاض بن جرهم

وقصي بن كلاب هو أول من جدَّد بناء الكعبة من قريش. وعن وهب بن منبه قال: **"بناها إبراهيم عليه السلام ثم العمالقة ثم جرهم ثم قصي بن كلاب"**. يخالف الدكتور جواد علي الأب شيخو الرأي، فيقول باستحالة أن يحلف عدي النصراني بآلهة مكة الوثنية أمام ملك نصراني هو النعمان.[82] لكن رأيه لا يبطل قطعا رأي شيخو، ولا ينفي أهمية الكعبة عند النصارى. وطالما لا يوجد مايؤكد أنهم رأوا فيها مجرد صرح وثني يكون الحلفان بربها أمر وارد.

----

75 - د. محمد إبراهيم الفيومي - في الفكر الديني الجاهلي –ص 91 – 92

76 - الإسلام والمسيحية في الميزان – شريف محمد هاشم، ص 36 ، وضع كتابه للرد على كتاب "قس ونبي" للأب جوزيف قزي.

77 - قمصان الزمن فضاءات حراك الزمن، د.جمال الدين الخضور، الفصل الخامس

78- اليعقوبي 1/ 101، وأيضا السيرة، الروض الأنف، المجلد الأول، ذكر ورقة بن نوفل

79- الأغاني، أبي فرج الأصفهاني 282/3

80- أخبار مكة وما جاء فيها من آثار للازرقي ج 1، بناء قريش الكعبة . أيضا في السيرة الحلبية للإمام برهان الدين الحلبي - بنيان قريش الكعبة شرفها الله تعالى، السيرة النبوية لأبن هشام، باب حجر الكعبة، و جواد علي، فصل 74

81 - النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، الأب لويس شيخو، ج1 ص 117 – 118، مقدمة ابن خلدون، الفصل 6

82 - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الدكتور جواد علي، الفصل 82

المسيحية في اليمن

يحيطنا الأدب السرياني بأمر مسيحية اليمن علماً. فيسطر المؤرخ اليعقوبي يوحنا الأفسسي بلوغ المسيحية مع مطلع القرن الرابع إلى قبائل الحميريين المتحضرة التي ورثت مملكة سبأ بعد انهيار سد مأرب.

قال البعض باحتمال دخول المسيحية إلى اليمن عن طريق الساحل مع السفن، إذ كان المبشرون يتنقلون مع البحارة والتجار، وقد تمكنوا من تأسيس جملة كنائس على سواحل جزيرة العرب وفي سقطرى والهند. ولا يستبعد آخرون، أن المبشرين دخلوا إلى اليمن عن طريق الحجاز، وتشير بعض المصادر إلى أن النساطرة بعد دخولهم إلى شمال الجزيرة، انحدروا من هناك إلى قلبها فجنوبها. يقول جواد علي: **"من الحيرة انتقلت النسطورية إلى اليمامة فالأفلاج فوادي الدواسر إلى نجران واليمن، وصلت اليها بالتبشير وبواسطة القوافل التجارية".** [83] ولم يكن التأثير اليعقوبي أقل قوة مما للنساطرة في اليمن، إذ أرسل المطران يعقوب السروجي إليها فرقاً من الرهبان والمبشرين.

بالاستناد إلى الموارد الإسلامية، أن رجلا اسمه فيميون وفد إلى نجران وبشر بالمسيحية. فقال ابن إسحاق عن حديث وهب بن منبه: **"كان أن رجلا من بقايا أهل دين عيسى بن مريم يقال له فيميون ... فاتبعه عند ذلك أهل نجران على دينه، فحملهم على الشريعة من دين عيسى بن مريم عليه السلام".**[84]وفي شخصية فيمون تقول المراجع السريانية أنه تاجر وثني معتبر اسمه حيّان وأن حفيدته هي الشهيدة النجرانية حبصة ابنة حيان الصغير. [85]

أيضا تذكر المصادر الإسلامية أسما عربيا من بين الذين اشتهروا في نشر المسيحية وتثبيتها في اليمن، هو عبد الله بن ثامر، وكان قد أخذ المسيحية عن أحد الرهبان. تذكره السيرة بأنه رأس نصارى نجران، ويقول اليعقوبي: **"أظهر دينه باليمن، وكان إذا رأى العليل والسقيم قال: أدعو الله لك حتى يشفيك، وترجع عن دين قومك! فيفعل ذلك، فكثر من اتبعه".** [86]

كان للحبشة المسيحية تأثير مهم على مسيحية اليمن، إذ بعد احتلالها صارت المسيحية ديانة اليمن الرسمية. وانتشرت الكنائس في البلاد الحميرية، لاسيما في نجران وظفار ومأرب والهجران وحضرموت. وفي القرن السادس كانت نجران قد أصبحت كرسيا أسقفيا. ورسم على ظفار أسقفا هو جرجنسيوس، صاحب كتاب "شرائع الحميريين"، الذي صار فيما بعد رئيس أساقفة ظفار يشرف على مجمل كنائس اليمن والعربية الجنوبية. وقد اشتهرت كنيسة نجران بحرمتها الكبيرة لدى مسيحيي اليمن، فأطلق عليها اسم "كعبة نجران". فيها قال الشاعر الأعشى:

وكعبة نجران حتم عليك   حتى تناخي بأبوابها
نزور يزيد ، وعبد المسيح   وقيساً ، هم خير أربابها

من جملة ما يوثق مسيحية أهل اليمن وإيمانهم بألوهية المسيح والثالوث الأقدس، كتابة مؤرخة بسنة 575 بحسب التقويم الحميري (460 م). جاء في الكتابة عبارة **"رحمنن وبنهو كرشتش غلبن"**، أي ما معناه **"الرحمن وابنه المسيح (كريستوس)"**. ووثيقة أخرى هامة وخطيرة تركها الملك أبرهة وهي تتحدث عن ترميم سد مأرب. افتتح نص الوثيقة بعبارة **"بخيل وردا ورحمت رحمنن ومسحو ورح قدس سطرو وذن مزندن**، أي **"بحول وقوة ورحمة الرحمن ومسيحه وروح القدس سطروا هذه الكتابة".** [87]

----

83 - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الدكتور جواد علي، فصل 80

84 - السيرة- الروض الأنف، الجزء الأول " ابتداء وقوع النصرانية بجران"

85 - الشهداء الحميريون في الوثائق السريانية، ص 7 و 8

86 - سيرة ابن هشام - الجزء الأول- ابن ثامر، تاريخ اليعقوبي 77/1

87 - الشهداء الحميريون في الوثائق السريانية - البطريرك أغناطيوس يعقوب الثالث، ص 8 ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام – الدكتور جواد علي ، الفصل 31 و 41 و 79

اشتدت المنافسة بين اليهود والمسيحيين في الجنوب العربي، فانقلبت عداء مريرا انتهت بمأساة مروعة كتبت صفحة من أسوء صفحات تاريخ مملكة حمير في اليمن. ابتدأت المأساة لمّا استولى على الحكم يهوديا اسمه يوسف أسعر، أو يوسف مسروق الملقب "ذي النواس". هذا أضطهد المسيحيين وكال لهم شتى أنواع العذاب. فأحرق كنيسة نجران ودفع بأكثر من خمسة آلاف مسيحي إلى حد السيف، على رأسهم حارث بن الكعب. ولمّا جاءت امرأة اسمها زاروبا لترثي القتلة حرقوها هي الأخرى، ثم جمعوا كل النساء في مكان للقتل. أما صلاتهن للمسيح عند الاستشهاد فكانت **"اقبل حياتنا ذبيحة مرضية في عينيك"**. [88]

لم يكن هذا الحادث ببعيد العهد عن الإسلام، فأشار إليه القرآن بأصحاب الأخدود، وذكرته كذلك الكتب الإسلامية، غير أن **"ما رواه النصارى عنه، وهم الطرف الثاني فيَ النزاع، فإنه أطيب جداً وأوضح مما ورد في الموارد الإسلامية وفي الرواية اليهودية... فقد اعتمدت على السماع والمشافهة أيضاً، ولكنها أخذت من موارد ووثائقّ مسجلة دوّن بعضها بعد وقوع الحادث بقليل"**.[89]

لعل المصادر السريانية هي الأهم في هذا الشأن. فلمّا دون يوحنا الأفسسي هذا الحادث، عرض من الوثائق الهامة رسالة لمار شمعون الأرشمي، تضمنت وصفا للأحداث بواسطة شهود عيان قدموا من اليمن إلى الحيرة. وعنه أخذها البطريق ديونيسيوس ابن العبري، فأدخلها في تأريخه المؤلف بالسريانية.

أيضا من الوثائق التي تتعلق بشهداء نجران، كتاب ليعقوب السروجي، وقصيدة في رثاء الشهداء لبولس أسقف الرها، ونشيد كنسي سرياني ليوحنا بسالطس رئيس دير قنسرين، وميمر ليعقوب الرهاوي. و قد دون سرجيوس أسقف الرصافة ومؤلف القسم السرياني الخاص بشهداء نجران، أسماء الشهداء على الجدار الشمالي للكنيسة الكبرى، كنيسة القديس سرجيوس.[90]

يشير بطريرك السريان اغناطيوس يعقوب الثالث إلى وثيقة سريانية هامة في الخزانة البطريركية، تميط اللثام عن إيمان الشهداء الحميريين ورئيسهم الحارث بن كعب. وهي الرسالة المذكورة آنفا لمار شمعون الأرشمي سنة 524 والموجهة إلى شمعون رئيس دير الجبول في سوريا الشمالية، وتتضمن قصص بعض الشهداء الحميريين الذين تكللوا بالشهادة في مدينة نجران. منهم، شهداء حضرموت والقس مار إيليا، الذي كان قد تهذب في دير مار إبراهيم في تلا المجاورة لمدينة الرقة، وقد رسمه قسيسا مار يوحنا أسقف تلا . ونالت أيضا إكليل الشهادة أمه وأخوها. واستشهد القسيس مار توما الذي تهذب في دير مار انطيوخينا في مدينة الرها.[91]

جاء في الوثيقة: **"أن المنافق ذي النواس عرى الشريف الحارث بن كعب وقال له:" ... فإنني أشير عليك، ضنا بشيخوختك، أن تكفر بالمسيح المضل وبصليبه، فتحيا، وإلا مت شر ميتة... فأجابه: أتريد أن تجعلني في شيخوختي غريبا عن المسيح ربي؟... حاشا لي أن اكفر بالمسيح الإله الذي آمنت به منذ صباي واعتمدت باسمه ... فالآن لا مانع من جهتنا أن نموت من أجل المسيح. فلمّا رأى الملك أن لا سبيل لكفرهم بالمسيح، أمر أن يساقوا إلى الوادي حيث تحز رؤوسهم وتلقى أشلاؤهم. ولمّا بلغوا الوادي، وقفوا جميعهم معا، وبسطوا أيديهم إلى السماء وقالوا:" أيها المسيح إلهنا، هلم إلى معونتنا وتقبل نفوسنا... ثم بادر كل منهم إلى حيث رأى سيفا مسلولا وجثا على ركبتيه واقتبل السيف، حتى استشهدوا جميعا"**.[92]

88- جواد علي، فصل 41

89 - تاريخ الكنيسة، جون لوريمر، ج 2 ص 19

90 - جواد علي، فصل 37

91 - الشهداء الحميريون في الوثائق السريانية – توطئة، جواد علي، الفصل 41

92- الشهداء الحميريون، ص 23 - 25

خلاصة:

كانت القبائل العربية في نواحي فلسطين وبادية الشام من أوائل الشعوب التي عرفت المسيحية واعتنقتها. ولم يكن حلولهم بتلك المناطق ليثبت قطعا اعتناق بعضهم للمسيحية، لولا وجود الدلائل التاريخية على ذلك.

إنّ العرب، خلافا لأي شعب آخر، في انتقالهم إلى المسيحية، لم ينتقلوا إلى ديانة غريبة عنهم. السبب أنهم هم وأرضهم وأجدادهم يمثلون، إلى جانب الشعوب الشرقية الأخرى، البيئة الجغرافية، الثقافية التي ولدت فيها المسيحية. هذه من الثوابت التي لا جدال فيها، إلا لمن يرغب في إثارة الجدل. فليست المسألة المختلف عليها انتشار المسيحية المبكرة بين القبائل العربية من عدمه، وإنما ضبط بداية تشيعها للمسيحية.

تشكلت المسيحية من ثلاثة مذاهب كبرى ساهمت في نشأة المسيحية العربية وتطورها. وقد اعتنق العرب كل من هذه المذاهب الثلاثة.

أخذت المسيحية العربية تنتظم بشكل واضح في القرن الرابع بعد المرسوم القسطنطيني، فكان لها حضوراً قوياً وتمثلها أبرشيات في بلاد الشام والعراق وبلاد النهرين وشبه الجزيرة العربية.

الباب الثاني

المسيحية العربية والإسلام

في هذا الباب:

ينصَّب الكلام في الدور الذي لعبته المسيحية في نشأة الإسلام ودور الإسلام في إزالة مسيحية العرب.

ونتأمل من منظور مسيحي في الدعوة الإسلامية فجر انبثاقها، والعوامل التي ساهمت في نشأتها وانتشارها. ومن الأمور التي تجعلنا نولي الإسلام اهتماما في تاريخ المسيحية العربية:

أ – أنه فريقاً حبلت به وولدته نصرانية الجزيرة العربية، وكانت المسيحية الشرقية هي المسئول الأول في نشأة الوالدة والمولود.

ب – كونه دينا خيم على المسيحية الشرقية، فعاشت تحت ظله القسم الأكبر من تاريخها، وأخذ حيزا كبيرا من تفكيرها وتراثها الأدبي والديني.

بعد التأمل في المناخ العام والظروف التي هيأت لولادة الإسلام، نخوض في مسألة الفتوحات الإسلامية وما كان لها من نتائج على مسيحية العرب.

الفصل الأول

الإسلام،

طائفة نصرانية لا دين جديد

لا يمكن الكلام في تاريخ المسيحية العربية بعيداً عن الإسلام العربي. فقد خلّفت المسيحية آثاراً مهمة في تاريخ العرب لم تمحها الأزمان ولم يعف عليها الدهر، كما وتركت ختمها العميق في نشأة الإسلام وحياة وتعاليم رسول المسلمين نفسه. وتأثيرها في الإسلام تلون إلى حد بعيد باليهودية، بسبب تغلغل هذه الديانة في كافة مناطق الجزيرة العربية، لاسيما يثرب، وخيبر، وتيماء، واليمن. فصبغت الجزيرة بصبغة يهودية بلغت قبائل كثيرة من العرب، منها قبائل يهودية استعربت كالنضير وقريضة وقينقاع، ومنها قبائل عربية تهود بعضها كحمير وكندة وكنانة.

لم يأتي نبي المسلمين من خارج هذا المحيط العربي، بل أنه ولد فيه وشب على عاداته وتقاليده واستقى من الأفكار الدينية اليهودية والنصرانية التي تشبع بها مجتمع شبه الجزيرة إلى أن جاءته الدعوة. والدعوة ذاتها قامت في الأصل على ما رآه بعض النصارى من دور ديني لمحمد، كما وتثبتت على ما استنبطه محمد نفسه من كتب أهل الكتاب.

إنّ الرهبان الذين تنبؤا بقدوم محمد، إن صحت الروايات الإسلامية في هذا الشأن، لا يعقل أنهم تشوقوا إلى دين جديد يتنافى مع دينهم، أو انتظروا نبياً يخالف معتقداتهم ويطغي عليهم ويضعهم بين فكي الكماشة، إما الإسلام أو السيف، بل أن الأوضاع السائدة آنذاك استدعت انتظار زعيم مصلح يحفظ ما تقدمه من أديان ويعمل على توحيد أحزاب اليهود والنصارى المتناحرة، ويضم إلى عبادة الله الواحد من نال منهم التشويش الديني.

كانت الأحزاب والفرق الدينية التي انتشرت في جزيرة العرب آنذاك قد ولدت آراء دينية غامضة تصلبت في شكل طقوس دينية، **"كان لها مؤثرات هامة هيأت لقيام زعيم ديني قومي كمحمد".**[93] وهي الحالة التي قال فلنهاوزن بأنها: **"تفشت في كل الجزيرة العربية حتى سيطرت على بعض الأشراف. فالأرض كانت ممهدة لقدوم الإسلام".**[94] ويقول جرجس سال: [95] **"إن بلاد العرب كانت وقتئذ غاصة بشعوب وأمم عديدة مختلفة يتفرقون في بيداء ضلالهم بلا هاد يهديهم، وجلهم عبدة أوثان وباقوهم يهودا ونصارى من أهل البدع. فتوخى محمد أن يجمعهم على معرفة إله واحد".**

أدرك محمد دوره جيدا وارتضى بمسؤولية النبي المصلح ولم يرى بداية أنه مؤسسا لدين جديد. لقد فطن إلى ضرورة التوفيق بين الفرق النصرانية المنحرفة وسعى بكل جهده إلى تأسيس طائفة دينية تجمع تحت جناحيها فراخ النصرانية واليهودية المنقسمة المشتتة. إنها دعوة انحصرت في إطار التوحيد وجمع الشمل، وقد تجلت طبيعتها في القول القرآني **"أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه"** وإذ استجاب محمد دعوة الله هذه، قال: **"لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون".** [96]

وصف نولدكه الإسلام بأنه **"الصيغة التي دخلت بها المسيحية إلى بلاد العرب كلها".**[97] يوافقه في ذلك جملة من البحاث، منهم هشام جعيط بقوله: **"وإذ استجاب النبي للنداء المسيحي في جوهره... يصح اعتبار الدعوة المحمدية صيغة**

----

93 - العرب ، تاريخ موجز، فيليب حتي، ص 31

- 94

Julius Wellhausen, zit. Karl Jaros in „Der Islam“ Hess, Bad Schussenried, 1997„Die Situation der Christen auf der arabischen Halbinsel“ S.3

95 - مقالة في الإسلام ، جرجس سال، ج 3 ص 16

96 - أبو موسى الحريري "قس ونبي"- النصرانية والإسلام ص 116

97 - تاريخ القرآن، تيودور نولدكه، الترجمة العربية ص 8

عربية للتوحيدية وللتراث التوحيدي العتيق ... وهكذا رجع القرآن إلى أصوله الحضارية – العالم الروماني المسيحي – بعد أن اكتسى ثوبا عربيا".[98] ويقطع الأب جوزيف قزي الشك باليقين، فيقول: **"يبدو إذا، وبهذا الوضوح التام، إن المسلمين هم النصارى الذين توحدوا في أمة واحدة، أمة مقتصدة، أمة وسط، وذلك بعد تفرقهم وتحزبهم. ويبدو أيضا بالوضوح نفسه، أن الإسلام هو الاسم العربي للنصرانية، أي للطائفة التي آمنت من بني إسرائيل وأيدها النبي في إيمانها على التي كفرت".** [99]

لم تكن نظرة المسيحية في الإسلام بالأمس تختلف عنها اليوم. ولم يستغرب المسيحيون مجيئه في زمن اكتظ بالانقسامات المذهبية وتفشي البدع وظهور الهراطقة على المسرح الديني. وعند ظهوره كان الإسلام عندهم **"أقرب إلى طائفة يهودية – مسيحية منه إلى دين جديد... فقد اعتبر يوحنا الدمشقي محمداً هرطوقياً، لا مؤسساً لدين جديد ... وقد كان يقول لخصومه المسلمين: "عندما تدعوننا مشركين ندعوكم مشوّهين".**[100]

تشهد الأخبار على وجود نصراني عام طغى في مكة واخترق قبيلة قريش ذاتها، وهي التي وكل إليها العناية بالكعبة، بل وتدل المصادر على تغلغل النصرانية في عشيرة الرسول العربي، من جده إلى والده، وأعمامه، وأقربائه ومعارفه. يأتي الشيخ خليل عبد الكريم في كتابه المشهور"فترة التكوين في حياة الصادق الأمين" إلى ذكر بعض نصارى قريش. فيقول: **"إذن فاز بنو أسد بسهم وفير من بين فروع قريش بصفة الأنتلجنتسيا فكان من بينهم ورقة بن نوفل والبطرك عثمان بن الحويرث و الطاهرة و سيدة نساء قريش خديجة بنت خويلد".** [101]

أما ورقة بن نوفل وابنة أخيه خديجة فهم أقرباء لمحمد، ويلتقي نسب ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي بنسب الرسول العربي في جد جده. والفرع المنحدر من عبد العزى هو الفرع المتنصر من قريش والذي أهملت ذكره المصادر الإسلامية. وقد أجمع الرواة على نصرانية ورقة، كما دلت عليها أشعاره، غير أن نصرانية ورقة تختلف بشكل كبير عن مسيحية أورشليم وأنطاكيا، وهي صورة مشوهة للمسيحية، عرفها العرب في وسط الجزيرة، وخلقتها مؤثرات انبعثت من بدع ومذاهب مسيحية ويهودية ووثنية.

بناءاً عليه ذهب البعض إلى الاعتقاد، أن عرب مكة والمدينة وسادة قريش، الذين اعتنقوا المسيحية وصاروا من أتباعها، لم يأخذوا المسيحية الحقيقية، وإنما أخذوا النصرانية التي عُدَّت بدعة، [102] وأن نبي العرب لم يخالط خلال حياته سوى أتباع المسيحية الزائفة. لذا يستوجب عدم الخلط بين المسيحية العربية التي سادت شرق وجنوب الجزيرة وبين نصرانية مكة وقريش. ففي الشرق والجنوب كانت المذاهب الغالبة هي نسطورية يعقوبية، وهذه المذاهب، بغض النظر عن تأثرها بالجدل الفلسفي في طبيعة المسيح، كانت تؤمن بلاهوت المسيح وبموته وقيامته وبعصمة الكتاب المقدس ولا يمكن بحال من الأحوال مقارنتها بنصرانية وسط الجزيرة.

----

98 - تاريخية الدعوة المحمدية في مكة، هشام جعيط، 164 – 165

99 - قس ونبي، ص 116

100 - تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، فيليب حتي، ج 2 ص 143 – 144

101 - فترة التكوين في حياة الصادق الأمين، خليل عبد الكريم ص 10

102 - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الدكتور جواد علي، الفصل 79

الفصل الثاني

التكوين يسبق الوحي

إنّ المتأمل في حياة محمد بن عبد الله على أساس تاريخي مادي محض، وضمن منطق الأحداث، وبعيدا عن الأسطورة العاطفية، لن يرى فيه سوى ذاك القريشي الذي تعلم وتتلمذ لسنوات طويلة على يد أسقف نصارى مكة، القس ورقة بن نوفل.

ولا بد للباحث الأمين في تاريخ محمد قبل بعثته، التاريخ الذي يُعرَّفه البعض بـ "فترة التكوين"، أن يصل إلى الاستنتاج، بأن المحرك الأساسي في حياة محمد وتطلعاته الدينية، والمكتشف لمواهبه وقدراته، والمحرض له على تسلق سلالم القيادة والشهرة كانت خديجة بنت خويلد، ابنة أخو القس ورقة.

من الغريب، أن السيرة النبوية تضرب صفحا عن خمسة عشر عاما في حياة محمد تمتد من زواجه بخديجة إلى بعثته، وهذا ما يزيد الباحثين يقينا، بأن هذه الفترة المعتمة في المصادر الإسلامية كانت للمخاض الداخلي وللنهل من المعرفة. فلا يمكن لشاب كمحمد أن يتجه للبحث اللاهوتي دون تهيئة مسبقة وتأثير يولد لديه هذا الاهتمام. إنها حقائق تاريخية هامة في حياة "النبي" لا نغفل عنها ولو تنكر لها المسلمون، وهي عند البعض فرضيات لا مناص منها وعند البعض الآخر من المسلمات.

وإنه لمن المستحيل على أهل العلم أن يزجوا بهذا الأمر في خانة الفرضيات المحتملة بسبب ما للمسيحية من وزن وجاذبية في المحيط الذي وجد فيه محمد، وهذا ما يدعونا، مع نولدكه أن **"نأخذ بعين الاعتبار التأثير المسيحي على النبي"**،[103] ويقودنا لنرى مع الأستاذ جعيط صعوبة أن لا يكون محمد قد تأثر بنصرانية القس ورقة **"إذ لابد من وجود مثل هذه التأثيرات... ولا مناص من هذه الفرضية إذ لا يمكن فهم تأثيرات مسيحية الشام على الرسول لو لم تجد صدى مسبقا في النفس"**.[104]

لكننا ننوه، أن مسيحية الشام لم تكن هي المؤثر الأساسي في فكر محمد رغم اتصاله ببعض رهبانها. فهذه المسيحية كانت ملكانية يعقوبية نسطورية، وأن ألوهية المسيح وحقيقة الثالوث الأقدس وعقيدة الفداء هي من المسلمات عند كافة الفرق المسيحية في بلاد الشام. ولمّا كان محمد قد أنكر هذه المعتقدات جملة وتفصيلاً، لا يجوز القول بتأثير مسيحية الشام عليه. ونوعز بالفكر، أن دمشق هي المركز الذي اتصل فيه المسلمون للمرة الأولى بالفكر المسيحي النقي، وذلك بعد الفتح. أما ما عرفوه قبل ذلك فجاءهم عن طريق الهراطقة وكتبهم المنحولة.[105]

لعل القول الأوضح في هذا الشأن نجده عند الأب جوزيف قزي، الذي يشدد على المصدر الأساسي للمعرفة المحمدية قبل البعثة. فيقول: **"ولسنا نجد في مكة، في أيام النبي محمد، غير القس ورقة يلازم محمدا طيلة أربع وأربعين سنة ... هناك تدرب النبي على يد القس الخبير بشؤون الله والناس"**. [106]

ذهب الشيخ خليل عبد الكريم بشكل شبه صريح إلى أن خديجة بنت خويلد وابن عمها ورقة قد أشرفا على إعداد محمد دينيا وفكريا، وعليه يفهم المرء أن ما ورد بقرآن محمد، عن نفي ألوهية المسيح وبنوته لله لم يكن من الصعب على

---

103 - تاريخ القرآن، تيودور نولدكه، الترجمة العربية ص 8

104 - تاريخية الدعوة المحمدية في مكة، هشام جعيط، ص 152 – 154 و 162

105 - المسيحية والحضارة العربية، الأب الدكتور جورج شحاتة قنواتي، ص 96

106 - قس ونبي، أبو موسى الحريري، ص 34 و41 هوية القس ورقة

محمد أن يعرفه أو أن يقول به في غياب وحي مزعوم وهو قريب الصلة جدا، برجل نصراني أبيوني مثل ورقة. وحول دور ورقة وخديجة في تهيئة محمد يقول: **"دور لا نجد له في تاريخ الأديان مجرد شبيه. ملحمة خالدة سلخت من عمر الطاهرة والقس عقدا ونصف عقد من الزمان في الإعداد والتصنيع والتهيئة والتأهيل ... وحدثت واقعة "غار حراء"**. [107]

لمّا بلغ محمد الأربعين من عمره أتاه "الوحي" في غار حراء عند مكة، وما أن وصل الخبر لخديجة ومنها لعمها القس، صاح هذا الأخير: **"قدوس قدوس، والذي نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقتيني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة"**. [108]

إذا، التعليم والتدريب ونهل العلم والمعرفة ثم الوحي. وإذ سبق التعليم الوحي،[109] كان للتعليم أهمية أكبر في تكوين شخصية محمد ورسالته. وربما شعر بعض كتبة الأحاديث والسيرة النبوية بهذا الدور الخطير الذي لعبته فترة التكوين في حياة محمد وما كان للقس ورقة من تأثير وسلطان على توجهات محمد وخطابه الديني، فأعلنوا عن هذه الحقيقة بالقول الشهير: **"ولم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحي"**.[110] وهنا إشارة صريحة إلى جفاف أهم ينابيع المعرفة التي كان محمد ينهل منها وانقطاع صلته بمصادر "الوحي النصراني"، مما تسبب في إغراق "النبي" في اتجاهات فكرية تناقضت مع ما تعلمه وتتلمذ عليه.

من خلال ما تقدم نستطيع أن نستشف الدور الكبير الذي لعبته خديجة بنت خويلد وعمها القس ورقة في اختيار نبي أمة العرب بعد أن قرأوا و درسوا و تمعنوا في كتب اليهود و النصارى وبعد أن قامت خديجة المثقفة و العالمة بأحوال مجتمعها بدراسة متأنية و تمحيص و تدقيق، اختارت و قررت و دعمت و أعلنت للعرب، أن "محمد هو نبي هذه الأمة".

ويبقى السؤال لمن يرفض رؤيتنا للدور الذي رآه النصارى لمحمد: إن كان ورقة قد رأى في محمد نبياً ومؤسساً لدين جديد، لماذا مات على نصرانيته ولم يعلن إيمانه بإسلام محمد؟

----

107 - فترة التكوين في حياة الصادق الأمين، خليل عبد الكريم ، ص 18

108 - السيرة النبوية، ابن هشام- مبعث النبي

109 - تاريخية الدعوة المحمدية في مكة، هشام جعيط، ص 155

110 - صحيح البخاري بشرح الكرماني 1 : 38

الفصل الثالث

أثر النصرانية
في المعرفة المحمدية

إنّ المتتبع للتعاليم القرآنية لا يمكنه إلا أن يستخلص منها، أن الإسلام، في جوهره ينبع من اليهودية والنصرانية. كما أن سيرة "النبي" وتعاليمه وممارساته كلها تدل على مدى تأثره بهاتين الديانتين. هذا الرأي قال به معظم المؤرخين والباحثين والأخصائيين الذين تأملوا نشأة وحياة محمد بعيدا عن التعصب الديني.

يقول نولدكه، استنادا على ما جاء في المصادر الإسلامية: **"إن محمداً حمل طويلا في وحدته ما تسلمه من الغرباء، وجعله يتفاعل وتفكيره، ثم أعاد صياغته بحسب فكره ... لقد توفرت قنوات اتصال عديدة ومتنوعة، سرت عبرها المعارف الدينية إلى محمد".**[111]

ومن مصادر المعرفة التي نهل منها محمد واصطبغ بها القرآن نذكر التالي:

1 - شخصيات نصرانية

رغم أن محمد، قبل أن تأتيه الدعوة، تدرب على يد ورقة وخديجة لا يمكننا أن ننفي مطلقا استلامه لاحقاً بعض المعلومات الدينية من مصادر أخرى. وواقع الأمر، إننا لا نجد في المصادر الإسلامية ما ينفي قطعا اتصال محمد بيهود ونصارى الجزيرة ولا حتى بنهل المعرفة منهم.

تذكر المصادر الإسلامية أناس كانوا يقبلون إلى مجالس ومساكن بعض النصارى لسماع قصص التوراة والإنجيل، وكان محمد من بين هؤلاء. فعن ابن هشام قوله: **"وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم - فيما بلغني - كثيرا ما يجلس عند المروة إلى مبيعة غلام نصراني يقال له جبر عبد لبني الحضرمي فكانوا يقولون والله ما يعلم محمدا كثيرا مما يأتي به إلا جبر النصراني، غلام بني الحضرمي".**[112] فنزل "الوحي" ليدفع هذه التهمة عنه بالقول: **"ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر، لسان الذين يلحدون إليه أعجمي، وهذا لسان عربي مبين".**

إلى جانب جبر هنالك شخصيات نصرانية قد تكون أثرت في تعاليم محمد بشكل أو بآخر، ومنها بحيرا الراهب. فقد كتب عبد المسيح بن اسحق الكندي رسالة إلى عبد الله بن إسماعيل الهاشمي ذاكراً فيها أن بحيرا الراهب قام بتعليم محمد. ولعل أول من كتب في هذا الأمر كان القديس يوحنا الدمشقي في كتابه "ينبوع المعرفة" تحت عنوان "هرطقة الإسماعيليين"، كاشفاً طبيعة العلاقة بين محمد وبحيرا. والعنوان يؤكد ما سلف قوله، أن يوحنا الدمشقي وغيره رأوا في الإسلام بدعة من بدع النصرانية لا ديناً جديداً.

هناك أيضا عيصا، وقد جاء عنه في السيرة **"كان بمر الظهران راهب من الرهبان يدعى عيصاً من أهل الشام، وكان متخفراً بالعاص بن وائل وكان الله قد آتاه علماً كثيراً، وجعل فيه منافع كثيرة لأهل مكة من طيب ورفق وعلم".** [113]
ويحلو للمحدثين ذكر عيصا وهو المنبئ بميلاد نبيهم.

----

111 - تاريخ القرآن- تيودور نولدكه، الترجمة العربية، ص4 و 15 و 17
112 - سيرة ابن هشام، الجزء الأول
113 - البداية والنهاية، ابن كثير، جزء 2، ذكر ارتجاس كسرى

ولا ننسى ميسرة غلام السيدة خديجة بنت خويلد والموكل إليه مرافقة محمد في رحلاته التجارية إلى الشام حيث عرفه ميسرة ببعض الرهبان، ومنهم نسطور، وهو اسم ثان لبحيرا. جاء في طبقات ابن سعد، أن محمد **"خرج مع غلام خديجة ميسرة حتى قدما بصرى من الشام، فنزلا في سوق بصرى في ظل شجرة قريبا من صومعة راهب من الرهبان يقال له نسطور، فاطلع الراهب إلى ميسرة، وكان يعرفه قبل ذلك، فقال: يا ميسرة من هذا الذي نزل تحت هذه الشجرة ... ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي"**.[114]

ويذكر أهل الأخبار القس بن ساعدة الإيادي، خطيب القوم في سوق عكاظ، وقد لذت لمحمد أقواله حتى قال: **"مهما نسيت فلست أنساه بسوق عكاظ، واقفا على جمل أحمر يخطب الناس"**. وينسب لساعدة القول: **"كلا بل هو إله واحد، ليس بمولود ولا والد، أعاد وأبدى، وإليه المآب غدا"**.[115] والقول يتطابق في المعنى مع سورة الخلاص **"قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد"**.

وتتحدث الروايات عن راهباً نسطورياً عالج محمد من رمد شديد أصاب عينيه. بالإضافة إلى النصراني عثمان بن الحويرث أحد بني أسد، والراهب عداس النينوى، وقد استشارته خديجة في أمر التشنجات عند نزول الوحي على محمد فقال لها: **"يا خديجة إن الشيطان ربما عرض للعبد فأراه أموراً. فخذي كتابي هذا وانطلقي به إلى صاحبك. فإن كان مجنوناً فإنه سيذهب عنه وإن كان من عند الله فلن يضره"**.[116]

ويذكر الدكتور جواد علي ورود اسم رجل أدخل للمسلمين القصص الديني، فيقول: **"هو تميم بن أوس بن خارجة الداري، ذكر أنه أسلم سنة تسع من الهجرة، وأنه كان نصرانياً، وانه لقي النبي، فقص عليه قصة الجسّاسة والدجّال. وذكر انه كان يترهب ويسلك مسلك رجال الرهبانية حتى بعد إسلامه ... فكان يقص في مسجد الرسول وكان بذلك أول من قص في الإسلام. وروي أنه أول من أسرج السراج في المسجد... ولكننا لا نستبعد أن يكون قد خلط بين القصص النصراني وبين الأساطير العربية. فقد كان نصرانياً، يسمع أقوال وعّاظ الكنائس، فتعلم منهم، وطبق ما تعلمه في الإسلام"**. [117]

2 - مصادر سريانية

تشير المصادر الإسلامية إلى استعانة محمد بالرجال المحيطين به ممن يثق بهم ويجيدون القراءة والكتابة ليطلعوه على مضامين كتب ليتروجية تخص اليهود والنصارى. وقد ورد عن جرير عن الأعمش عن زيد بن ثابت أنه قال: **"قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتحسن السريانية ؟ فقلت: لا. قال: فتعلمها؛ فإنه يأتينا كتب، فتعلمتها في سبعة عشر يوما. زاد الحاكم: قال الأعمش: كانت تأتيه كتب لا يشتهي أن يطلع عليها إلا من يثق به"**.[118]

يستبعد الباحثين أن يكون محمد قد قرأ الكتاب المقدس، ويروا أنه استقى معلوماته حول المسيحية من كتابات عقائدية وطقسية، وبناءا عليها شكل في قناعته، وبحسب ما يتطلبه الهدف السياسي، موقفا من الفرق الدينية المنتشرة في الجزيرة. وهو موقف أسقطه مؤرخو الإسلام وفقهائه على الأصول المسيحية. فأصبح موقف محمد من البدع ومشايعيها موقفا من المسيحية ذاتها في تعاليمها الجوهرية.

----

114 - طبقات ابن سعد ج 1 / 156

115 - البداية والنهاية، ابن كثير، الجزء الثاني، ذكر قس بن ساعدة الإيادي، والشهرستاني، الملل والنحل، المطبعة الأزهرية، ص 96

116 - السيرة الحلبية، 267/1 والسيرة المكية، 183/1

117 - المفصل في تاريخ العرب، الدكتور جواد علي، فصل 128

118 - تخريج الأحاديث الصحيحة، الشيخ ناصر الدين الألباني، حديث رقم 187

والحديث في المصادر السريانية يطول جداً، لذا أختصرها بذكرها أهمها، وهي أفكار مار أفرام السرياني، ولاسيما تلك المتعلقة بالجنة والخلود. إن الدارس لهذه الأفكار لن تفوته التشابهات الكبيرة والقاسم المشترك مع الفكر المحمدي المعلن في القرآن. ولعل الأسباب التي استدعت إلى ظهور أفكار أفرام عند محمد تعود إلى أن الرهبان المنتشرون في الجزيرة العربية قدموا بغالبيتهم من بلاد النهرين، حيث ولد أفرام وعاش وعلم في مدرسة الرها ونصيبين وترك فكره مبلغ الأثر في تلامذته.

برهن المستشرق تور أندري في أبحاثه ببراعة القرابة بين الفكر الأفرامي والنص القرآني فيما يتعلق بالبعث والجنة وما فيها من أطايب.[119] وفي هذه التشابهات يقول جعيط: **"أنه يصعب على المؤرخ أن يعتبر أنها من محض الصدفة... ذلك أن التشابهات ليست فقط في الفكر بل في التعابير والصور والاستعارات".** [120] وبهذا الصدد يقول الأب جوزيف قزي: **"لا أقول إن القرآن العربي نقل مباشرة عن مار أفرام السرياني أو عن سواه ... بل إن أفكار مار أفرام كانت شائعة في الكنيسة السريانية...والصلة بين القرآن ومؤلفات الكنيسة السريانية لم تكن نتيجة جو عام عاش فيه محمد وأخذ عنهن بل كانت بواسطة تعاليم ونصوص عرفها شفهيا وكتابة على السواء".**[121]

لعل اهتمام محمد الزائد بالمصادر السريانية هو ماحث زيد على تعلم اللغة السريانية، ليترجم مابين يدي محمد من كتب وضعت بهذه اللغة. ونظراً لما جاء في قرآنه من تعبيرات تشتق أصلاً من هذه اللغة، جعل الباحثين يقرؤون القرآن بعيون سريانية آرامية، ليبينوا دور أفرام فيما نزل على محمد من قرآن بلسان سرياني مبين، ويضيفوا رأيا هاما إلى جملة الآراء التي قالت بنصرانية الإسلام. [122]

3 - الهراطقة

لم يسلم الاسلام من تأثير البدع التي نشات نتيجة خلط البعض للمسيحية باليهودية والفلسفات الاغريقية. من هذه البدع:

119–

Tor Andrae, Les Origines de l Islam et Christanisme, Trad. J. Roche, Paris 1955

Tor Andrae, tr. Theophil Menzil, Mohammad: the Man and his Faith, N.Y.1936.

هنا عينة مما كتبه أفرام للمقارنة: "شاهدت مقامات الأبرار، وإذا الطيوب تقطر منهم، والروائح العطرة تفوح من أعطافهم، وأكاليل الزهور تزين رؤوسهم ... حين يتكئ الأبرار إلى المائدة تجود عليهم الأشجار بأظلالها ... تهب النسيمات الطيبات، من كل لون. يحملن الأطباق ... والمدعوون الملمون لا يبرحون ... حيث الخدم يخدمون لا يتعبون ... النسيمات في الفردوس يتنقلن أمام الأبرار، تخف الواحدة بالطعام، والأخرى تصب الشراب. هبوب تلك مسمن، ومهب هذه رواء ... نسيم يرفهك، ونفح يلذذك. واحد يسمنك، وآخر ينعمك ... من امتنع عن الخمور في الدنيا تتوق إليه الخمور في الفردوس، وتمتد إليه كل نبتة من الكرمة بعنقود عنب. ومن عاش عفيفا استقبلته الحور بصدور نقية طاهرة". (عن كتاب "قس ونبي" ص 162 – 164 و تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، فيليب حتي، ج2 ص 144 – 145)

120 - هشام جعيط – تاريخية الدعوة المحمدية في مكة، ص 167 – 172

121 - قس ونبي"- حق القس على النبي- التشابه- في أمر الجنة 163

122 - منهم مؤلف كتاب "قراءة سريانية آرامية للقرآن" "Die syro-aramäische Lesart des Koran". C. Luxenberg ويفترض الكاتب، أن القرآن كتب بداية بمزيج من العربية والسريانية، اللغة المنطوقة والمكتوبة السائدة عند العرب حتى القرن الثامن. لذا احتوى على الكثير من اللغة الغامضة وغير القابلة للتفسير، وأن الكثير مما جاء به هو وفقا للنحو السرياني وليس النحو العربي، الذي وُضعت قواعده فيما بعد عن يد أعاجم لم يلمّوا بأصول لغة القرآن. وعليه يؤكد لزوم قراءة النص القرآني وتفسيره وفهمه في إطاره الزمني مجردا من المؤثرات السياسية اللاحقة، وفي انسجام عناصر اللغتين العربية والسريانية. القرآن عنده بالسريانية هو"قريانا"، أي "كتاب الفصول"، الذي ترجمت محتوياته ليس لتأسيس ديانة جديدة، وإنما لنشر ديانة قديمة. يعطي المؤلف لبعض من آيات القرآن قراءة جديدة، برفع أخطاء التنقيط وإرجاع الدلالة إلى الجذور السريانية. من جملة المفاهيم التي تصححها قراءته "حور الجنة". ففي تحليل للآيات يبيّن لغويا وموضوعيا نسبة المصطلحات إلى نصوص سريانية معروفة بالـ "ميامر" ألفها أفرام السرياني عن الجنة، وأن لفظة "حـور" صفة سريانية للعنب الأبيض، كما أن "عين" صفة اسمية تعبر عن صفاء وبريق الحجارة الكريمة التي ينعت بها القرآن نصاعة العنب الأبيض، فيشبهه باللؤلؤ المكنون. أما في أمر "الولدان المخلدون"، فقد تبيّن أن المراد بالولـدان هي "ثمار"، وفقا للمرادف السرياني "يلـدا". فتوجّب قراءة "مجلدون" بدلا من "مخلدون". وهكذا أصبحت الآية تفيد بأن ثمار الجنة تؤكل مجلدة (باردة)، بخلاف أهل الجحيم "الآكلون من شجر من زقوم ... فشربون عليه من الحميم".

أ - الدوستية الغنوصية. [123] ومنها نبع القول القرآني **"وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم".** جاء القول ليعيد صياغة فكرة سبقت الإسلام بقرون، حين قالت الدوستية الغنوصية بعدم صلب المسيح فعليا، وأن الصلب لم يتجاوز حدود التهيؤ أو التخيل، وأن المصلوب كان في الحقيقة شخص آخر غير المسيح.

إن الدوسيتيون الغنوصيون هم أول من قالوا أن المسيح لم يقتل أو يصلب وإنما شُبِّه لأعدائه من اليهود والرومان بأنهم صلبوه وقتلوه، وذلك لأنهم أنكروا مجيء كلمة الله في الجسد. هذه الفكرة ترجع إلى القرن الأول المسيحي ويشير إليها الرسول يوحنا بالقول: **"كل روح يعترف بيسوع المسيح انه قد جاء في الجسد فهو من الله. وكل روح لا يعترف بيسوع المسيح انه قد جاء في الجسد فليس من الله. وهذا هو روح ضد المسيح الذي سمعتم انه يأتي والآن هو في العالم".** [124]

ب - الأبيونية. [125] تشكلت هذه الفرقة من مزيج يهودي- مسيحي صاغ نصرانية وسط الجزيرة العربية، بعد أن كانوا قد هاجروا من فلسطين إلى الحجاز، حيث انتمى بعضهم إلى القبائل العربية. إذ ذاك شايع هذه الفرقة القريشيين من فرع عبد العزى، ومنهم ورقة بن نوفل. الأبيونية على ما يظهر تتفق مع شهادات القرآن أقله في الأمور الأساسية، مثل إنكار لاهوت المسيح واعتباره مجرد نبي عظيم. يقول عالم الإسلاميات ومترجم القرآن إلى الألمانية هارتموت بوبزين: **"يستنتج المرء من القرآن وجود جماعة أخرى مسيحية على قدر من الأهمية، تحتم وجودها في الجزيرة العربية زمن محمد، وهم المسيحيين– المتهودين...الأبيونيين، وإن العوامل المشتركة بين الإسلام وهذه الجماعة لا تتوقف عند النواميس المتعلقة بالأطعمة والاغتسال أو انتظار قدوم "النبي الجديد"، بل أيضا وقبل كل شيء يذهب الفريقان إلى الاعتقاد بأن المسيح هو مجرد نبي".** [126]

اعترف الأبيونيون بإنجيل واحد منحول هو، إنجيل متى العبراني، أو إنجيل العبرانيين، الإنجيل الوحيد الذي وجد بين يدي ورقة، وكان يقرأه وينقله إلى العربية، بدليل ذكره دون غيره في كتب السيرة والحديث، وبدليل ذكر القرآن لإنجيل واحد لا غير. وعليه لا يستبعد الأب جوزيف قزي، بل يستغرب حقا ألا يكون **"القس ورقة كأحد الغنوصيين الكسائيين المتبحرين في الكتب، حتى غدا عالما بها، عارفا بقصصها، مفسرا لها، شارحا بيناتها، مبشرا بتعاليمها، ممارسا فرائضها، قائما على عبادتها، مفصلا أسرارها، وكأنه الخبير الحكيم الذي قصده القرآن العربي في قوله: "ألر. كتاب أحكمت آياته، ثم فصّلت من لدن حكيم خبير".** [127]

----

123 – الاسم مشتق من الكلمة اليونانية Dokein وتعني "يظهر". في دائرة المعارف البريطانية 2001 وتحت مادة "الدوسيتية" جاء حول هذه الفرقة: "هرطقة مسيحية من احدى المذاهب المسيحية المبكرة، تزعم أن المسيح لم يكن له جسد حقيقي أو طبيعي أثناء حياته على الأرض وإنما كان له جسدا وهميا... واعتقد الدوسيتيون أن كل أعمال المسيح وآلام حياته بما فيها الصلب كانت مجرد تهيؤات". وجاء كذلك في قاموسAmerican Heritage Dictionary : "الدوسيتية: رأي ارتبط على وجه الخصوص بالغنوصيين، أن يسوع لم يكن له جسم بشرى وانه كان يبدو- في الظاهر- انه مات على الصليب".

"Do·ce·tism n. An opinion especially associated with the Gnostics that Jesus had no human body and only appeared to have died on the cross."

124 - 1 يوحنا 4 : 2- 3

125 - الاسم مشتق من كلمة أبيونيم العبرية ومعناها الفقراء. والأبيونية حركة ظهرت في القرن الأول للمسيحية وانتشرت في فلسطين والمناطق المجاورة. وهي يهودية النزعة رأت في المسيحية امتدادا لليهودية، ودخل فيها رهبان قمران بعد خراب هيكل أورشليم.

126 -

Hartmut Bobzin, „Mohamed“ S.55, Verlag: C.H.Beck , München, August 2000 : "Aus dem Koran kann man auf eine weitere wichtige christliche Gruppierung schließen, die es zu Mohammeds Zeit in Arabien noch gegeben haben muss; dies waren die sog. Judenchristen... „Ebioniten“. Die Gemeinsamkeiten zwischen Islam und Judenchristentum betreffen nicht nur bestimmte Speise- und Waschungsvorschriften oder die Erwartung eines „neuen Moses“, sondern vor allem die wichtige Auffassung, dass Jesus „nur“ ein Prophet ist."

127 - قس ونبي، أبو موسى الحريري، هوية ورقة، ص 26

الفصل الرابع

أثر الإسلام
على مسيحية الجزيرة العربية

تحول الخطاب المحمدي

إن التحولات الكبيرة التي طرأت على مسار محمد الفكري قد خلقتها الأوضاع السياسية الجديدة في شبه الجزيرة. فبعد أن تثبَّتت نبوته عند العديد من العرب وأصبح قائدا عسكريا متمكناً، تغير خطابه من الحوار والترغيب إلى التحذير والتهديد في ما يلخصه القرآن بالقول: **"قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرِّمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون"، "وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم"**.[128]

انقلبت الموازين، وصار الإسلام النصراني، الذي جنح بداية إلى السلم وجاء برسالة الدعوة إلى الوفاق، دينا يبيح قتل اليهود والنصارى ويستبيح أموالهم وأعراضهم تحت مسميات عدة. مع هذا التحول في الخطاب المحمدي دخلت المسيحية حقبة جديدة من تاريخ الألم والمعاناة بعد سلام دام ما يقارب 300 سنة منذ مرسوم ميلانو.

يفسر فلنهاوزن تحول محمد من مبشرا ونذيرا إلى قائداً سياسياً بالقول: **"إن المعارضة دائما تتغير عندما تصل إلى الرياسة، وأن السياسة عند تطبيقها تبعد كثيرا عن الفكرة التي عليها... وهذا هو الذي يفسر لنا أن النبي صار رئيسا سياسيا تغير عما كان عليه"**.[129]

قام محمد بحملات عسكرية عدة هدفت إلى إخضاع المنطقة تحت سلطة الإسلام، مما أدى إلى دخول قبائل مسيحية في الدين الجديد، متأثرة بعوامل عديدة:

1 - الخوف من السيف.

2 - التهرب من دفع الجزية.

3 - الطمع في الغزو مع المسلمين وكسب الغنائم.

4 - للحفاظ على المركز والسلطان.

5 - لستر الأعراض وتجنيب النساء والأطفال مساوئ الغزاة.

ولا يجوز إهمال ما كان لسبي النساء واسترقاق الأطفال من تأثير في الأسلمة، وإن سمينا الأشياء بأسمائها، قلنا "هتك الأعراض"، الذي جعلوا له فقه خاص سموه "جماع الأسيرات". أما المقدمة الضرورية للممارسات التي واكبت الغزوات فكانت التكفير. والكفار **"أوجب تعالى القيام عليهم بمر الحق، وإن أدى إلى صلبهم وقتلهم، وقطع أيديهم وأرجلهم وأعضائهم، وضربهم بالسياط، وشدخهم بالحجارة، وهتك أستارهم، وسبي نسائهم وذراريهم"**.[130] أمام هذا التهديد

----

128 - سورة التوبة 29 ، سورة الأحزاب 26 – 27

129 - تاريخ الدولة العربية، يوليوس فلنهاوزن، ص 6

130 - الإحكام في أصول الأحكام، ابن حزم، مجلد 1، جزء 4 /فصل في إمكان النسخ

انهارت عزيمة الكثيرون، فاعتنقوا الإسلام.

إخضاع الجزيرة العربية

نجح محمدا في السيطرة سياسيّاً على المسيحيّين العرب في الجزيرة العربيّة ودخل بعضهم في الإسلام والأغلبيّة خضعت للجزية وأقرّت زعامته. الذين لم يذعنوا للدعوة المحمدية ورفضوا كذلك الجزية، وجدوا أنفسهم بين خيارين، السيف أو الهجرة. هذا الخط سلكه محمد وخلفائه من بعده حيثما ذهبوا، في عهد أبو بكر الصديق وعهد عمر بن الخطاب وعهد عثمان بن عفان ومن تبعهم.

قاد محمد بنفسه عدة غزوات في شمالي الحجاز، على تبوك، وأيلة، واذرح، والجرباء. ثم بعد فتح مكة أقام اتصالات بمن يعيشون في البحرين من نصارى عبد القيس، فأسلم بعضهم، أما النصارى من غير العرب فبقوا على مسيحيتهم وخضعوا لقانون الجزية.

من الأمراء العرب المسيحيون، الذين حكموا في أعالي الحجاز، يحنة بن رؤبة رئيس أيلة. هذا رفض الإسلام وصالح محمد على الجزية فحافظ على مركزه. دعاه المسعودي "أسقف أيلة"، وهو اللقب الذي ورد في محاضر بعض المجامع الكنيسة التي وقع عليها يحنة. [131]

تتحدث المصادر عن هوذة بن علي الحنفي، الذي كان ملكاً مسيحيا على اليمامة و شاعر قومه وخطيبهم. رفض هوذة دعوة الرسول العربي إلى الإسلام بيد قيس بن عمرو الأنصاري، مفضلا البقاء على دين المسيح. فبقى ومات على نصرانيته.[132]

عرفت اليمامة العديد من سادة النصارى، منهم طلق بن علي بن طلق بن عمرو. ويروى عنه، أنه لمّا ذهب إلى المدينة وأسلم، قال له محمد ولمن معه: **"إذا قدمتم بلدكم فاكسروا بيعتكم وابنوها مسجداً"**، فعملوا بقول محمد وكسروا بيعتهم وحولوها إلى مسجداً، وكان يدير البيعة آنذاك راهب من قبيلة طيء.[133]

وأهل دومة الجندل وجماعة أكيدر كان لهم نصيب وافر من غزوات محمد وجيوشه. فبعد أن غزاها محمد أمر عبد الرحمن بن عوف أن يتزوج أبنة الملك الأصبغ الذي أجبره على الإسلام. وسار إليها أيضا خالد ابن الوليد **"يساعده عياض من تغلب وقتل رؤساءهم، ودخل المدينة منتصراً، فغنم جيشه غنائم كثيرة وقُتِلَ من أهلها خلق كثير. وسبي ابنة الجوديّ. وكان الأكيدر في جملة القتلى"**.[134] كانت هذه الموقعة أول مواجهة طائفيّة بعد موت الرسول العربي بين العرب من مسلمين ومسيحيين.

يتبيّن من رسالة البطريرك النسطوري أيشوعاب الثالث، التي كتبت بين 50 و 52 هـ، أن مسيحيّي عمان اعتنقوا الإسلام ليحافظوا على ثروتهم الماديّة ومراكزهم. فيقول: **"أين أبناؤك أيها الأب أين معابدك أيها القس ؟... إنّهم لم يجبروا لا بالسيف ولا بالنار ولا بالتعذيب والاضطهاد بل استولت عليهم الرغبة في الحفاظ على نصف ثروتهم"**، وفي قوله إشارة إلى أنّ المسلمين طالبوا بنصف ثرواتهم مقابل بقائهم على دينهم.[135]

----

131 - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام – الدكتور جواد علي ، الفصل 79

132 - المرجع السابق، فصل 44

133 - المرجع السابق، فصل 166

134 - المرجع السابق، فصل 44

135 - المسيحية العربية وتطوراتها، سلوى بالحاج، ص 148

رغم ذلك تشبث قسم كبير من العمانيين بمسيحيتهم، وفي مقدمتهم بني ناجية، ولمّا أرسل إليهم علي ابن أبي طالب رسولا يدعوهم إلى الإسلام أجابوه قائلين **"نحن قوم نصارى، لم نر دينا أفضل من ديننا فثبتنا عليه"**.[136]

خصّ محمد أساقفة نجران في اليمن برسالة يدعوهم فيها إلى الإسلام أو دفع الجزية وإن أبوا هذا وذاك فالحرب. فجاء وفد منهم للحوار، من بينهم عبد المسيح والأيهم وحبرهم أبو حارثة بن علقمة. دارت مناقشة بين وفد نجران ومحمد انعكس مضمونها في سورة آل عمران. ولمّا لم يقتنعوا بدعوته، استجابوا لحكمه عليهم، المتمثل في فرض الجزية الجماعية، فأسلم منهم من لم يكن متأصلا في المسيحية من العامة أو من الرؤساء الذين فضلوا الحفاظ على سلطانهم.

لكن مما جاء في السيرة النبوية بعد ذلك يزيدنا علماً بتغير موقف محمد من النجرانيين، وأن الاحداث اللاحقة رسخت اليقين عند اليمنيين بانعدام مبدأ التحاور في الإسلام. يقول ابن اسحاق: **"ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد، في شهر ربيع الآخر أو جمادى الأولى، سنة عشر إلى بني الحارث بن كعب بنجران وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثا، فإن استجابوا فاقبل منهم وإن لم يفعلوا فقاتلهم. فخرج خالد حتى قدم عليهم فبعث الركبان يضربون في كل وجه ويدعون إلى الإسلام ويقولون أيها الناس أسلموا تسلموا. فأسلم الناس، ودخلوا فيما دعوا إليه، فأقام فيهم خالد يعلمهم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه"**.[137]

توفي محمد بن عبد الله في المدينة وبويع أبو بكر بالخلافة وحارب قبائل العرب المرتدة. ومع أن مسيحيو نجران جددوا البيعة لأبي بكر، أخل عمر بن الخطاب بعهد محمد معهم إخلالاً منكراً. فهم بطردهم من جزيرة العرب خوفا من تعاظمهم وغناهم، وكان له في ذلك قول محمد حجة، وهو أن **"لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان"**. فأجلاهم وأسكنهم بلاد الشام والعراق.

----

136 - سلوى بالحاج، ص 80 و 132

137- السيرة النبوية لابن هشام، الجزء الثاني - إسلام بني الحارث بن كعب

الفصل الخامس

المسيحية تحت السيف

سقوط الحيرة وجنوب العراق

بعد أن أحكم الإسلام قبضته على الجزيرة العربية، استسلمت له العراق والجزيرة الفراتية وبلاد الشام من دمشق إلى أورشليم فحلب وأنطاكية دون مقاومة تذكر، وفي غضون 18 عاماً رفرفت راية الإسلام على سوريا الطبيعية ومصر وشمال إفريقيا وقسم من آسيا الصغرى.

في السنة التي تلت وفاة محمد كانت الجزيرة قد خرجت من حروب الردة وأعدت العدة لغزوا البلدان المجاورة. فرغ خالد بن الوليد من اليمامة ثم توجه إلى العراق واستولى سنة 12 هـ على الحيرة سلما. من بين القادة الذين صالحوه آنذاك، عبد المسيح بن عمرو، و هانئ بن قبيصة بن مسعود الشيباني، و فروة بن اياس، و عدي ابن عدي بن زيد العبادي وأخوه، وصالح، الملقب صلوبا بن نسطونا. هؤلاء استسلموا وهدمت قصورهم وأقيمت على أنقاضها المساجد. يقول البلاذري: **"وحدثني شيخ من أهل الحيرة قال: وجد في قراطيس هدم قصور الحيرة التي كانت لآل المنذر أن المسجد الجامع بالكوفة بني ببعض نقض تلك القصور وحسبت لأهل الحيرة قيمة ذلك من جزيتهم".**[138]

لكن الأسلمة لاقت مقاومة من بعض رؤساء الحيرة وأهلها، ولمّا باءت محاولات خالد باستمالة العرب إلى الإسلام بالفشل، عرض عليهم الجزية. عندها رد عليه قبيصة بن مسعود فقال: **"مالنا بحربك من حاجة بل نقيم على ديننا ونعطيك الجزية".**[139]

يروي ياقوت الحموي، أن خالد بن الوليد لمّا فتح الحيرة تقابل مع هند الصغرى بنت النعمان بن المنذر ملك الحيرة في الدير الذي بنته وترهبت فيه. ولمّا دعاها إلى الإسلام ردت عليه بالقول: **"أمّا الدين فلا رغبة لي فيه غير دين آبائي".** فأمر لها خالد بمعونة ومال وكسوة، لكنها رفضتها وقالت: **"أنا في غنى عنه".**[140]

رضي أهل الحيرة بالجزية، وسرعان ما شقت الأسلمة طريقها إلى الفئات الفقيرة والضعيفة منهم، مما قاد إلى نشوء تكتلات مسيحية بين قبائل بكر وعرب الضاحية بغية الدفاع عن الهوية الدينية، لكن خالد حاربهم وحسم المعارك لصالح المسلمين وضرب أعناق كل الأسرى، **"فأقبلت الخيول بهم أفواجا مستأسرين يساقون سوقا وقد وكل بهم رجالا يضربون أعناقهم في النهر ففعل ذلك بهم يوما وليلة وطلبوهم الغد وبعد الغد حتى انتهوا إلى النهرين...وقد كان صد الماء عن النهر فأعاده فجرى دما عبيطا فسمي نهر الدم".**[141] كانت هذه ضربة قاسية للمسيحية في جنوب العراق أخمدت كل مقاومة وأدت بالتالي إلى إسلام البعض وخضوع البعض الآخر للجزية. غير أن الكثير من إياد وتغلب فضلوا الهروب إلى بلاد الروم للحفاظ على مسيحيتهم.

----

138 - فتوح البلدان، احمد بن يحيا بن جابر البلاذري - ذكر تمصير الكوفة

139 - البداية والنهاية، ابن كثير الجزء 6 "بعث خالد إلى العراق

140 - معجم البلدان، ياقوت الحموي ص 791

141 - تاريخ الطبري 2/ 314

إثر مقتل الخليفة عثمان بن عفان حاول بعض مسيحيي العراق من بني ناجية، الذين نفروا من سفك الدماء باسم الدين، الانضمام إلى الجماعات الثائرة على عليّ بن أبي طالب، فقالوا: **"والله لَدينُنا الذي خرجنا منه خير وأهدى من دين هؤلاء الذي هم عليه. ما ينهاهم دينهم عن سفك الدماء وإخافة السبيل وأخذ الأموال"**. [142] إلا أن علي أقمع الثورة وأرغم المرتدين على الرجوع إلى الإسلام، ونفى بعضهم إلى خارج العراق ليعتبر بهم الآخرين.

نجح المسلمين في إخماد الثورة وإضعاف المسيحية العربية في جنوب العراق عن طريق التصفية الجسدية، غير أنها بقت حية في مدينة الحيرة وبين بعض قبائل العرب القاطنين هناك. فلم تضمحل مع الفتح الإسلامي بين سكان البلاد الأصليين، بل بقت قوية ومزدهرة حتى العصر العبّاسي الأول. وكانت لها أديرة في الحيرة، وظاهر الكوفة، والنجف ذاعت سمعتها، مثل دير الدساكر وابن برّاق والحريق وابن مزعوق. ومن أساقفتها سيرجيوس ويوحنا الأزرق وحنان يشوع وابن عبيده.

سلام لك يا سورية

فشل محمد في استمالة ملوك بلاد الشام وكسبهم للإسلام، ومنهم جبلة بن الأيهم والحارث بن أبي شمر الغسانيّ الذي رفض دعوة الرسول ورمى بكتابه الذي حمله إليه شجاع بن وهب مفضلا البقاء على مسيحيته.[143]

في السنة 633 اتجهت إلى سورية ثلاث سرايا، قاد الأولى عمرو بن العاص والثانية يزيد ابن أبي سفيان، والثالثة شرحبيل بن حسنة. جاء نصرهم الأول على جيش سرجيوس في فلسطين جنوبي البحر الميت، ثم زحفوا باتجاه دمشق وحاصروها. ولم تمضي ستة أشهر حتى كانت دمشق قد استسلمت في أيلول سنة 635. كان آنذاك من بين المفاوضين أسقف المدينة، ورئيس دائرة المال منصور بن سرجون جد القديس يوحنا الدمشقي.

إنّ الدويلات العربية الواقعة على حدود سوريا وذات الأصل العربي، وآخرها دولة الغساسنة، هي التي مهدت نوعا ما لفتح بلاد الشام وانتشار الإسلام فيها، وكانت هذه الدول بمثابة مقدمة لما دار بعد ذلك من أحداث. عندما وصلت الجيوش الإسلامية بلاد الشام في عهد عمر بن الخطاب، رحب بعض أهلها بالإسلام ونظروا إليه كمذهب من المذاهب المسيحية المنشقة عن الكنيسة الرسمية. وقد انحاز الفريق الأكبر من عرب سوريا إلى أبناء جنسهم، لاسيما اليعاقبة أتباع مذهب الطبيعة الواحدة، إذ رأى هؤلاء في العرب خلاصاً مرغوباً من التعسف البيزنطي ومن الملكانيين.

أبدى العرب المسيحيين تساهلا عجيبا في تسليم المدن، حتى إنهم تعاونوا مع الفاتحين على طرد البيزنطيين عن بلاد الشام.[144] وانضمت بعض القبائل من لخم، وجذام، وغسان، وعاملة، والقيس، وقضاعة إلى المسلمين. وهكذا انقسم موقف المسيحيين في بلاد الشام تجاه جيوش المسلمين بين معارض وموالي، بين مستسلم وصامد. فانضمّ فرسان من العرب المسيحيين إلى الجيوش الإسلامية وأعانوهم على كسرة الروم في معركتي أجنادين واليرموك. بينما انضم عدد كبير من القبائل إلى جيش الروم.

يقول الدكتور فيليب حتي: **"ليس من العسير أن نعلل "الفتح اليسير" الذي تم للعرب باكتساح هذا الإقليم من الإمبراطورية البيزنطية"**.[145] ويرجع حتي بالأسباب إلى الغارات التي شنها الفرس في أوائل القرن السابع، والانشقاق الكنسي الذي عمل على تصديع وحدة المجتمع الروحية وفشلت معه كل محاولات هرقل للتسوية بين الأطراف الكنسية المتنازعة.

---

142 - تاريخ الطبري 5/ 125

143 - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الدكتور جواد علي ، الفصل 44

144 - جواد علي، مرجع سابق، فصل 33

145 - فيليب حتي، السابق، ج2 ص 13

سقطت المدن السورية الكبرى وأرسل هرقل أخاه على رأس جيش في معركة اليرموك، ولمّا سقط قتيلا قال هرقل مقولته الشهيرة وهو في طريقه من أنطاكيا إلى القسطنطينية "سلام لك يا سوريا". وبهذا خضعت سوريا وختم على مصيرها.

ولمّا أخذ العرب في فرض الجزية على غير المسلمين، رفضها جبلة بن الأيهم الغساني [146]، مما استوجب رحيله عن الشام ودخول بلاد الروم في جمع كبير من قبائل العرب. ومع نهاية السنةِ الخامسةَ عشرة للهجرة، كانت بعلبك وظهر البيدر وحمص وحماة وقنسرين قد سقطت وانتهى وجودُ الروم في شمال وشرقِ بلادِ الشام، إلا أنهم كانوا ما زالوا يحتفظون بمدينة بيت المقدس.

دخل القائد عمرو بن العاص على رأس جيشه إلى فلسطين وضرب حصاراً حول القدس نحو سنة كاملة ثم عرض على سكانها التسليم والأمان فرضي البطريرك صفرونيوس بالتسليم وأعطي له عهد أمان عرف "بالعُهدة العُمرية". بعد احتلال القدس عين عمر أبا عبيدة بن جراح حاكما عسكريا عليها. ولمّا دخلها في حلة البدو راكبا جملا ولابسا رث الثياب، كان في استقباله البطريرك صفرونيوس، الذي حين رآه التفت إلى مرافقه وهمس باليونانية: **"حقا هذا رجس الخراب الذي تكلم عنه النبي دانيال، ورآه قائما في المكان المقدس"**. [147]

غزوا الجزيرة الفراتية

بعد أن غدت سوريا قاعدة عسكرية إسلامية توجه منها حوالي سنة 639 جيشا بقيادة عياض بن غنم نحو الشمال الشرقي لإخضاع بلاد مابين النهرين. دخلت جيوش العرب الجزيرة واحتلت الرقة وآمد ونصيبين وطور عبدين والرها وحران. فهجرت على أثرها قبيلة إياد وبعض من قبيلة تغلب إلى بلاد الروم. وإذ شعر عمر بخطورة الموقف وخوفا من أن تحذوا بقية القبائل حذوهم، طالب ملك الروم بإخراج العرب الذين دخلوا إليه، وإلّا طرد كل المسيحيين المقيمين في بلاد الإسلام. ثم اشترط عمر على العائدين قبول الإسلام في سبيل العفو عنهم.[148]

تعرض مسيحيو الجزيرة لمضايقات شتى، مما دفع الكثير منهم إلى الرحيل. ومع دخول الإسلام أقبلت قبائل عربية مسلمة إلى جزيرة الفرات وأزاحت قبائل ربيعة وتشتت بنو تغلب المقيمون بين الخابور ودجلة والفرات وفقدوا بعض ديارهم كبلد وسنجار وماردين. ويذكر التاريخ انه سنة 330 هـ، خرج التغالبة بذراريّهم وعبيدهم ومواشيهم في نحو عشرة آلاف فارس إلى ملك الروم، ومثلهم فعلت قبائل كلب.

استمر النشاط المسيحي في بلاد ما بين النهرين وإن بضعف، فلم ينقطع بناء الأديرة والكنائس مع الغزو الإسلامي للبلاد. من الأديرة الشهيرة التي أقيمت، دير العجاج بين تكريت وهيت، الذي بناه مار ماروثا مفريان تكريت، وعنه كتب خلفه مار دنحا الأول، مفريان تكريت سنة 659 م يقول: **"هدى رهبانه الفضلاء خلقا كثيرا إلى محجة الدين القويم ... فتبارك الله الذي جعل هذا الدير بعنايته سببا لهداية كثيرين ونجاتهم وفرحا لجزيرة ما بين النهرين"**.[149]

----

146 - البداية والنهاية، ابن كثير، الجزء الثامن. تتضارب الأخبار في موقف جبلة بن الأيهم من جيوش المسلمين، فتارة معهم وتارة أخرى ضدهم. وقد أورد ابن كثير في المرجع السابق اختلاف المسلمين في مصير بن الأيهم، منهم من قال بإسلامه ومنهم من لم يقل. وبعضهم قال بإسلامه ثم بارتداده. والرأي الأخير هو الأرجح في شأن بن الأيهم، الذي لم ينل الكرامة المنشودة في ظل الإسلام فرفضه ورحل إلى بلاد الروم. ويقول الأصفهاني: "أن معاوية لما ولي بعث إليه فدعاه إلى الرجوع إلى الإسلام، ووعده إقطاع الغوطة بأسرها، فأبى ولم يقبل" (الأغاني ج15 / 1679)

147 - تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، فيليب حتي، ج2، ص 15

148 - ابن العبري، ص 173، سلوى بالحاج، ص 154

149 - سلوى بالحاج، ص 170

الفصل السادس

مصير المسيحيون العرب الأقحاح

ألاندثار

حسم المسلمون الحرب العسكرية لصالحهم وصبوا جل اهتمامهم على أسلمة بني جنسهم من عرب. وقد نجحوا إلى حد كبير في استمالة بعضهم إلى الإسلام، كما وأسلم البعض الآخر تحت تهديد السيف والجزية والتهجير.

انضم جميع مسيحيي البحرين العرب إلى الدعوة الجديدة ولم يبق في البحرين مع حلول القرن الثامن للميلاد مسيحيين عرب، سوى قلة من القبائل الرحل كبني صالح، الذين تمسكوا بنصرانيتهم حتى عصر الخليفة المأمون. أما المسيحيين من غير العرب فبقوا إلى ما بعد ذلك، حيث أعادت الكنيسة النسطورية ترتيب أمورهم، لكنهم ما لبثوا أن انحدروا هم أيضا في طريق الزوال إلى أن انقرضوا تماما من شرق الجزيرة.

وصل أهل نجران اليمنيين إلى الكوفة واستقروا فيها بعد أن أجلاهم عمر بن الخطاب عن الجزيرة العربية، فانضمّوا إلى المذهب النسطوري عام 791. وفي فترة ما من تاريخها، انضمت أبرشيتهم إلى أبرشية بني معدّ. كان يوحنا آخر أسقف سامه البطريق باسيليوس الأول من القرن العاشر عليهم، ومعه انتهت أبرشية النجرانيين في العراق، الذين افتقروا وضعفوا جدا بسبب التهجير. ولمّا لم يعد بمقدورهم دفع الجزية أسلموا تدريجيا، سعيا للخلاص من بؤس العيش، إلى أن تآكلوا تماما. يقول فلنهاوزن بأن عددهم في العراق كان قد تناقص على عهد عمر بن عبد العزيز إلى أن بلغ عشر ماكان عليه.[150] لكن المسيحية في اليمن بقت قائمة لفترة طويلة بعد الإسلام، وكان مار بطرس أسقفاً لنجران وصنعاء في القرن الثامن الميلادي، بل وتشير أخبار كنسية إلى وجود أساقفة نساطرة هناك حتى القرن الثالث عشر.[151]

ضعف العرب المسيحيون في العراق، إذ قتل منهم الكثير، ودخل بعضهم في الدين الجديد بسبب الفقر، ورحل بعضهم الآخر عن البلاد إما طوعا أو عنوة. بيد أن الإسلام لم يتمكن من السيطرة على القبائل العربية المسيحية بأكملها إلا بعد قرون، وبعد أن كانت الحيرة والأنبار، أهم المعاقل المسيحية في العراق قد خربت تماما بسبب هجمات الأعراب المتتالية بقصد القتل والنهب.

رغم المعاناة الشديدة بقيت مسيحية العرب في العراق لزمن طويل حية وثابتة، وكانت موضع فخر واعتزاز لقبائلهم. في نص رسالة لإسحاق الكندي وجهها إلى صديقه عبد الله بن إسماعيل الهاشمي في أيام المأمون جاء: **"فقد علم كل ذي علم ولب كيف كانت ملوك كندة الذين هم ولدونا وما كان لهم من الشرف عند سائر العرب. لكننا نقول ما قاله رسول الحق بولس ألا من يفتخر فليفتخر بالله والعمل الصالح فإنه غاية الفخر والشرف. فليس لنا اليوم فخر نفتخر به إلا دين النصرانية الذي هو المعرفة بالله".**[152]

في بلاد ما بين النهرين عاشت أبرشية تغلب قوية إلى ما بعد القرن العاشر الميلادي. وكان التغالبة يُنَّصرون أولادهم، رغم الاتفاق المبرم والقاضي بعكس ذلك. ويظهر المؤرخون أسماء عرب مسيحيين من التغالبة وغيرهم تؤكد

----

150 - يوليوس فلنهاوزن، تاريخ الدولة العربية ص 291

151 - لويس شيخو، النصرانية وآدابها ج1 ص 67. راجع أيضا الدكتور جواد علي في المرجع السابق، فصل 80

152 - المسيحية العربية وتطوراتها، سلوى بالحاج، ص 82

استمرار المسيحية العربية بعد الاحتلال الاسلامي للعراق والجزيرة الفراتية بزمن طويل. من هؤلاء يوسف الموالي للمطران دنحا التكريتي، وداود اسقف التغالبة على جزيرة ابن عمر والموصل، وعثمان الذي رسمه البطريق قرياقوس وهو من الذين حضروا مجمع تكريت سنة 835 تحت رئاسة ديونسوس الأول، والقس دانيال الطائي. [153] يقول الأب ميشال نجم: **"وأهم مرجع عندنا هو أبو نصر يحي بن جرير التكريتي السرياني الذي توفي عام 1079 والذي أورد في الفصل الرابع والخمسين من كتابه الموسوم "بالمرشد" أنه كان بين العرب مسيحيون كبني تغلب مثلا وبعض اليمنيين وغيرهم، وكان بينهم اسقف يرافقهم في ترحالهم مصطحبا المذبح من مكان إلى آخر. وحتى سنة 912 م كان بعض المسيحيين العرب يردون تكريت لشراء القمح. وفي تلك السنة سقف مطران تكريت رجلا تعبد بالمسيحية من العرب النصارى. فكان يتلو القداس لهم بالعربية".** [154]

تراجع الوجود المسيحي العربي في الجزيرة الفراتية في القرن العاشر نتيجة دمار العديد من المراكز المسيحية، ولم تكن الكنيسة اليعقوبية أو النسطورية قادرة بعد على إحياء المسيحية بين أتباعها من العرب بسبب انكماشها لمَا تعرَضت له من مضايقات. فتعرّضت قبيلة تغلب لنكسات نتيجة للحرب الداخلية التي وقعت بين عشائرها والتي يشير إليها البحتري في قصيدتين. وفتك القرامطة بالتغالبة في منطقة نصيبين، مما قاد الكثيرين منهم للعودة إلى البحرين، وكان ابتعادهم عن المحيط المسيحي عاملا مساهما في تلاشي أبرز قبائل العرب المسيحية.

في سوريا تمكّن الخليفة المهدي العباسي حوالي سنة 780م من تحويل نصارى تنوخ المقيمين بجهة حلب، وبني سليخ المقيمين في قنسرين إلى الإسلام. وكان حين دعاهم إلى الإسلام أبوا تلبية الدعوة فضرب عنق رئيسهم ابن محطّة فأسلم الباقون خوفا. وهدم على أثرها كنائسهم وأكره 5000 منهم على دخول الإسلام.[155] أما في تدمر فقد تمسكت قبيلة كلب بنصرانيتها لفترة من الزمن.

مع حلول القرن الحادي عشر كانت المسيحية العربية بشكلها القبلي قد اندثرت تماما من بلاد الشام والعراق والجزيرة الفراتية ولم يعد لها وجود سوى على الصعيد الفردي، وكان أن من بقي في المسيحية اندمج مع سائر المسيحيين في البلاد. ومع أن البعض قال ببقاء قبائل عربية مسيحية ناحية الأردن وبادية الشام من سكان درعا وحوران والجولان، إلا أنه من الصعب تقديم الأدلة على ذلك.

لم تعمر المسيحية العربية سوى أربعة قرون بعد ظهور الإسلام، لكن زوالها لم يكن بحال من الأحوال علامة على ضعفها، إذ أن صمودها كل هذه السنين في ظل الإسلام يدل على عكس ذلك. وإن كان المسلمون قد حسموا الأمر عسكريا، إلا أنهم فشلوا فشلاً ذريعاً في تحويل المسيحيين سكان البلاد الأصليين عن ديانتهم. وحق لنا الإشارة إلى دور الرهبان في صمود كنيسة المشرق أمام الأسلمة، الذين بفضل النعمة الإلهية الفائقة أظهروا أيماناً ثابتاً وإرادة صلبة في الحفاظ على مسيحيتهم وترسيخ أبناءها في الأيمان الأقدس.

أسباب وعوامل

إن الأسباب والعوامل التي عجّلت في امتداد الإسلام وانكماش المسيحية العربية وتلاشيها شيئا فشيئا من وسط العرب نشأت على الجانبين، الإسلامي والمسيحي على حد سواء. فمن الجانب الإسلامي عمل السيف والجزية والتهجير، وبطبيعة الحال، كانت الأسلمة غالبا تابعة لقتال عسكري وما يخلفه نصر الجيوش الإسلامية من تغيير في نمط الحياة والمسار

----

153 – سلوى بالحاج، ص 17

154 - المسيحية العربية، تاريخها وتراثها، الأب الدكتور ميشال نجم ص 127، يعتمد نجم على ذات المرجع الذي للدكتورة بالحاج (ص 174)، وهو كتاب "المصباح المرشد" لأبو نصر يحيى بن جرير التكريتي، الباب 54

155 - سلوى بالحاج، ص 217 ، وابن الكلبي، نسب معدو اليمن الكبير ج2 ص406، 407، أكد الحادثة أيضا السرياني ميخائيل الكبير في تاريخه.

السياسي. **"والأسرى الذين يقعون في أيدي العرب بالفتوح من أهل البلاد المفتوحة... فهؤلاء إما أن يفتديهم أهلهم، أو يبيعهم المسلمون لبعض تجار الرقيق ... والباقون في الأسر إذا اعتنقوا الإسلام نجوا من الرق غالبا".** [156]

وساهم نظام الجزية في إضعاف الوجود المسيحي العربي، إن لم نقل أنه المتسبب الأكبر في إعلان العديد عن إسلامهم هربا من الظلم الاقتصادي. ولم يكن لأحد من نصارى العرب أن ينجوا من القتل أو يستعفي من الجزية إلا بالهجرة عن بلاده، وهكذا أسلم من أسلم وهرب من هرب إلى بلاد الروم. أما الذين شملهم الخلفاء "بالرحمة الإسلامية" ولم يلزموا بالجزية، اشتُرط عليهم عدم تنصير أولادهم، كما حدث مع عرب تغلب وإياد والنمر. [157]

هؤلاء وغيرهم بعد مرور أربعة قرون في ظل الإسلام، زالت مسيحيتهم بشكل تلقائي، بسبب الموت الطبيعي للآباء والأسلمة التلقائية للأجيال اللاحقة. ولا يمكن لعاقل أن ينكر تأثير الضغط المعنوي الذي مارسه بعض الخلفاء والفقهاء على المسيحيين العرب بتهميشهم دينياً واجتماعيا حتى يضطروا إلى التخلّص من هذه الوضعية باعتناق الإسلام.

رغم ذلك لايجوز بنا تعليق الأسلمة على الإسلام وحده. فمن المراحل التاريخية التي مرت بها كنيسة المسيح، نستطيع أن نستشف حق جوهري ثابت، أن الاضطهاد على الكنيسة، مهما بلغ من قسوة، لا يمكنه أن يثني عزمها أويجعلها تتراجع أو يمنعها من تبليغ رسالة الإنجيل، بل أن نيران الإضطهاد كانت تلهب إيمانها وتزيدها نشاطاً وعزماً. وعليه لا بد من وجود عوامل أخرى تفسر لنا سرعة الأسلمة في البلدان التي دخلها الإسلام، منها:

أ - أن الجدل الفلسفي واللاهوتي حول طبيعة المسيح أحدث تصدعا وشروخا عميقة في المسيحية، وقاد بالتالي المسيحيين في الكنيسة الواحدة إلى تكفير بعضهم البعض. فنشأت نتيجة ذلك تحزبات وصراعات بلغت أحيانا حد الكراهية والبغض، حتى تمنى كل فريق زوال الفريق الآخر. ويسطر لنا التاريخ الكنسي حقبة مريرة عاشتها الكنيسة قبيل ظهور الإسلام، فبعد أن كان جل قصدها نشر نور الإنجيل، تفشت فيها روح المنافسة، وصار كل فريق يسعى إلى تعطيل الفريق الآخر ومسابقته إلى كسب المشايعين. وليس بالغريب أن تكون النتيجة الطبيعة لهذه الصرعات، أن يصطف حزب منهم إلى جانب العرب وينضم الحزب الآخر للروم.

ب - إن الأسلمة ارتبطت بلا شك بمدى عمق المسيحية وتأصل تعاليمها وقوة تنظيمها بين القبائل العربية، ولنا فيما تقدم من أحداث تاريخية أمثلة وبراهين على ذلك. لقد استسلمت المسيحية الغير منظمة بسرعة في شرق الجزيرة، بينما ثبتت مسيحية اليمن ولم تضعف أمام محاولات محمد لاستمالتها إلى الإسلام، ولم تخور أمام تهديد عمر بن الخطاب بإجلاء النجرانيين إلى بلاد الشام والعرق، فاختاروا الإجلاء والافتقار على الأسلمة.

إذاً، ضعف المسيحيين العرب وانعدام التنظيم الكنسي القوي جعلهم قبل كل شيء يتاثرون بالإسلام. وما يزيدنا يقينا بهذه الحقيقة، أن الأسلام فشل فشلا ذريعا في أسلمة سكان البلاد الأصليين، من آراميين، وأشوريين، وسريان، وأرمن، وقبط.

*****

خلاصة:

لقد لعب المسيحيون دورا هاما في انبثاق الدعوة المحمدية وأسدوا لها خدمة جليلة، بأن رفعوا قلوب العرب إلى الإله الأحد وبذلك هيئوا الطريق في قلوبهم لقبول الدعوة المحمدية؛ هم زرعوا والإسلام حصد.

----

156 - التمدن الإسلامي، جرجي زيدان، ج 4 ص 58

157 - جرجي زيدان، السابق ج 4 ص 70

خلال فترة لا تتجاوز عمر الإنسان الواحد جاء المسلمون وأحدثوا انقلابا هائلا في أوطان المسيحيين وحياتهم، ومنذ ذلك الحين، والى أحقاب وآماد قد لا تنقضي إلا بانقضاء الزمان، ومصائر المسيحية مرتبطة بالدين الجديد.

إن القارئ لتاريخ المسيحية العربية يشعر أنه يسير في طريق آلام تاريخية طويلة. طريق بدأت بقبول بشارة الخلاص والبحث اللاهوتي وبناء الكنائس والأديرة، ثم ضاقت رويداً رويداً إلى أن تلاشت آثارها كلياً، ولكن لا يخفى على المسيحي أن الله سيد التاريخ في ذلك مقاصد، وطوبى لمن وجه قلبه وفكره ليفهم مقاصده.

الباب الثالث

المسيحية المستعربة

- أحوالها ومصيرها -

في هذا الباب:

نبحث في حال المسيحيين بعد الفتوحات الإسلامية ووضعهم ضمن مجتمع عربي جديد تسوده المرجعية الدينية الإسلامية.

كان الاحتلال الإسلامي احتلالاً استيطانياً دائماً، مما حمل على تعرب البلدان والشعوب بما فيها المسيحية، التي مرت في مراحل تاريخية صعبة وقاسية جعلت الكثيرون يعتقدون بزوالها النهائي من الشرق.

نستعرض محطات من تاريخ المسيحية المشرقية وطوائفها، ونلقي نظرة على أوضاع المسيحيين في أوطانهم، وأسباب هجرتهم من المشرق، وموقفهم من العروبة والانتماء إليها.

الفصل الأول

ما بعد الفتوحات

الوضع العام في ظل الإسلام

سيطر المسلمين على مجمل البلدان التي احتلوها، وجعلوا للمسيحيين حق الأمان في ذمة المسلمين فسُمّيوا أهل الذمة. وكان العرب المسلمون إذ **"سكروا بخمرة السيادة والنصر، بارتقائهم من رعاية الإبل إلى سياسة الممالك"**، يترفعون عن أصحاب البلاد المحتلة ويعدون أنفسهم فوق أهل الذمة جبلة وخلقة وفضلاً. فاعتبر العربي نفسه سيداً على غير العربي، وأنه قد خلق للسيادة بينما خلق أهل الذمة لخدمته في المهن والصناعات.[158]

لم تكن معاملة الحكام المسلمين للمسيحيين واحدة بل تفاوتت على مر العصور من تفاهم وانفتاح إلى ذروة البطش. وقد اتّسم حكم بعض الخلفاء بالتشدد مع المسيحيين، وتواجد فقهاء اشترطوا عليهم عدم التشبه بالمسلمين في ثيابهم وهيئتهم. تكون شراك نعالهم مثنيّة، ولا يحذو حذو المسلمين وتمنع نساؤهم من ركوب الرحائل، وفرض عليهم تطويل شعورهم ولبس الزنّار، ومنعوا من قرع أجراس الكنائس ورفع الصوت عند الصلاة.

في تلك الأثناء هُدمت كنائس وحُولت أخرى إلى جوامع، وفي خلافة المتوكل، إذا كان للنصارى كنيسة واسعة ولو قديمة وُجب أن يؤخذ جانب منها ويُجعل مسجداً. وقعت المضايقة بالمسيحيين منذ عهد الوليد بن عبد الملك، الذي حوّل كنيسة يوحنا المعمدان إلى المسجد الأموي في قلب دمشق. كان أبو عبيدة بن الجراح قد أخذ قبلا نصفها الشرقي وصيره مسجدا وسمح للمسيحيين الاحتفاظ بالقسم الغربي منها. إلا أن الوليد أخذ القسم الخاص بالمسيحيين قسرا وضمه إلى المسجد.

توالت الاعتداءات على الكنائس ودور العبادة، وظل المسلمون ينتزعون الكنائس من أصحابها بعد فتح سورية بنحو نصف قرن. فكانوا **"يقيمون الصلاة في كنائس حولوها إلى مساجد... لم يقسموا الكنائس بالذات بينهم وبين النصارى، بل اكتفوا بقسمة الباحة المقدسة. فكان المصلون من أبناء دمشق يدخلون من باب واحد في السور، ثم يتحول النصارى إلى اليسار، وينعطف المسلمون إلى اليمين. وعندما احتل المسلمون مدينة حماه، حولوا الكنيسة التي نعتها أبو الفداء أحد المؤرخين الأهليين بالكبرى، إلى الجامع الأكبر...كذلك المسجد الأكبر في حمص ومسجد حلب، فقد كانا من معابد النصارى"**.[159]

خضع المسيحيون للنظام الإسلامي، الذي أقر قيودا تحد سكان البلاد في القومية والدين. فأصبح الشرع الإسلامي يهيمن على أمور الدولة، وحظر على المسيحيين الانخراط في الجيش، أو التسلق إلى وظائف قيادية في الدولة. ولمّا لم يكن بالإمكان إرغام المسيحيين على الخضوع لأحكام الإسلام، تم الاعتراف رسميا بكيان الكنيسة ومنحت لوناً من الاستقلال الذاتي في إدارة أحوالها الشخصية، بموجب قوانينها وتحت إدارة بطاركتها. فكان المسيحيون في مناطق كثيرة يتقاضون أمام محاكم كنسية خاصة بهم.

158- تاريخ التمدن الإسلامي، جرجي زيدان، ج 4 ص 70 – 71

159 - تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، فيليب حتي، ج 2، ص 128 – 129

بعد الفتح أقام مدبرو الكنائس في القسطنطينية إلى أن سمح الأمويّون للبطاركة أن يقيموا على كراسيهم في القدس والإسكندريّة وأنطاكية. وما أن هدأت عاصفة الفتوحات حتى تابع المسيحيّون على العموم ممارسة طقوسهم، واحتفظوا بكنائسهم وأعيادهم وعملت الكنائس على تثبيت من تبقى من المؤمنين. وكان المسيحيون يمارسون العبادة تارة بحرية، وتارة أخرى تحت الاضطهاد الصريح. وإن كانوا غالبا قد تمكنوا من إقامة الشعائر الدينية، إلا أنهم منعوا من التبشير وحُظر عليهم بناء كنائس جديدة. بيد أن هذه القوانين لم تكن دوما تطبق في تمامها خلال فترة الخلافة الأموية والراشدة.

تعريب البلدان وشعوبها

في الوقت الذي كانت فيه المسيحية العربية تسير نحو الاضمحلال صب العرب جهودهم في تعريب سكان البلاد الأصليين. وبعد أن كانت مصر قبطية والشام آرامية والعراق آشورية أصبحت هذه البلاد بتوالي الأجيال عربية النزعة، وزالت لغاتها الأصلية مع مرور الزمن.

سبقت بلاد الشام والعراق مصر إلى العروبة، ومع نهاية القرن العاشر ميلادي أخذت الثقافة القبطية تتلاشى تدريجيا وأصبحت الكنيسة تتمثل اللغة العربية. فصار علمائها يعبرون بلغة عربية فصيحة عن العقيدة المسيحية وتعاليمها. لم تعرف مصر هجرة عربية كبيرة إليها، إلى أن دخلتها جيوش الإسلام لتختم مصيرها وتعّربها مع بلاد الشام والعراق. فخضع الأقباط تحت الحكم العربي بين تعايش مريح أحياناً، واضطهادات مريرة أحياناً أخرى، تبعا لميول و أهواء الحكام. لكن الخيارات بقت هي ذاتها لا تتغير، إما اعتناق الإسلام أو الاستسلام للجزية والسيف.

لم يأتي التعريب فقط نتيجة للفتح والأسلمة، فهنالك بلدان دخلها الإسلام ودخل أهلها بجملتهم فيه ولم يستعربوا. لكن هنالك عوامل أخرى ساهمت في التعريب، أهمها:

أ - هجرة العرب المسلمين من شبه الجزيرة وتوطنهم الدائم في مصر والشام والعراق. يقول جرجي زيدان: **"لم ينتشر العرب بالفتح فقط، ولكنهم هاجروا أيضا بأهلهم وخيامهم وأنعامهم التماسا لسعة العيش في البلاد العامرة من مملكتهم الجديدة. فقد جلت بطون خزاعة إلى مصر والشام في صدر الإسلام، لأن أرضهم أجذبت فمشوا يطلبون الغيث والمرعى".** [160]

ب - الولادة والتكاثر. لقد شكل المسيحيون الغالبية الساحقة من سكان مصر وبلاد الشام والعراق حتى نهاية القرن الثاني عشر، ثم تكاثر المسلمون وفاقوهم عددا. **"فالمسلمون لمّا رأوا قلة عددهم، وما وقع في أيديهم من السبايا الروميات والفارسيات والقبطيات، استكثروا من أمهات الأولاد، فضلا عن الزوجات، فكثر نسلهم – والترف يزيد الدولة قوة بكثرة النسل- وتسابقوا على إحراز الجواري، حتى أن بعضهم أحصن ثمانين امرأة معا".** [161]

نشاط المستعربين

تعربت البلدان شيئاً فشيئاً، وحلت اللغة العربية مكان اليونانية والقبطية والسريانية وأصبحت هي حلقة الاتصال بين جميع المسيحيين في الشرق. بدأ المسيحيون المستعربون يشعرون بتحديات كبيرة فرضها الواقع الجديد، مما دفعهم إلى صياغة إيمانهم بتعبيرات لغوية ومفردات جديدة. لقد أدركوا أنه احتلالا استيطانيا تتخذ فيه كل المحاولات لطمس ومحو الثقافات غير المسلمة، فبادروا إلى تعلم اللغة العربية ونقل تراثهم الأدبي والديني إليها منعا في زواله.

----

160 - تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، ص 190

161 - التمدن الإسلامي، جرجي زيدان، ج4 ص 50

لم يكن هذا بالأمر السهل على المسيحيين، الذين إذ تعربوا تغربوا عن تراثهم. وفي وصف لحالهم وشعورهم تجاه المعطيات الجديدة التي وجدوا فيها، يقول الدكتور مشير باسيل عون: **"فاضطر المسيحيون إلى أن يستبدلوا لغاتهم الأصلية باللغة العربية. وما لبث أن نشأ من هذا الاستبدال اللغوي الثقافي توتر شديد في الوعي المسيحي الجماعي يوازي التوتر الذي ولده انتشار حقائق الدين الإسلامي بقوة الفتوحات العسكرية. ومنذ ذلك الحين ما فتئ المسيحيون المشرقيون يتنازعهم ضربان من الأمانة، الأمانة لتراثهم اللغوي الثقافي الديني الأصلي الذي حافظوا عليه في لاهوتياتهم وعباداتهم وبعض أدبياتهم، والأمانة لمقتضيات تكييف الشهادة الإنجيلية في قرائن انتشار الدين الإسلامي".** [162]

ولم تكن السرعة الغريبة في استعراب الجماعات المسيحية تعود بالدرجة الأولى إلى جهود المسلمين بقدر ما تعود إلى اندفاع المسيحيين أنفسهم، الذين من منطلق رسالتهم الإنجيلية سعوا إلى التأقلم مع الأوضاع الثقافية الجديدة والعمل على إبلاغ رسالة الإنجيل وتراثهم وحضارتهم للمحتل العربي. فلم يعش المسيحيون كأقلية دينية خطر التقوقع والانغلاق على الذات داخل المجتمع الإسلامي، بل اندمجوا فيه بشكل مميز وشبه كلي، وأغنوا الثقافة العربية بما نقلوه عن تراثهم القديم. ولفترة طويلة من الزمن كان المتصوفون المسلمون يقدمون على النساك المسيحيين يسألونهم في العقائد والحياة الروحية، حتى إن المرء يلمس المسيحية في بعض مقالات الزهد الإسلامي.[163]

ظل المسيحيون لقرون عديدة يشكلون الأكثرية، واستطاعوا، رغم أوضاعهم الخاصة، أن يكونوا الدعامة الأقوى في تكوين الحضارة العربية، اقتصادياً وعلمياً وأدبياً. وإذ انكبوا على تعلم اللغة العربية وأتقنوها خير إتقان، عرّفوا العرب بالفكر اليوناني بنقلهم إلى العربية أهم معالم التراث اليوناني في الفلسفة والطب والرياضيات والفلك والعلوم الطبيعية.

كان خالد بن يزيد، والخليفة عمر بن عبد العزيز قد أمرا علماء الإسكندرية بنقل كتب الطب والكيمياء من اليونانية والقبطية إلى العربية. وتألقت حركة الترجمة في عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، الذي عني بالعلوم، ثم ازدهرت حين جاء المأمون ليتمم ما بدأ به جده المنصور فأنشأ مدرسة "بيت الحكمة" للترجمة سنة 832م.

استفادت الكنيسة النسطورية من انتقال مركز الخلافة من سوريا إلى العراق لتستعيد مكانتها وتصبح الديانة الثانية للدولة العباسية. ولعل عدم ارتباط الكنيستين النسطورية واليعقوبية بأية قوى سياسية كان من أهم العوامل التي قادت حكام المسلمين للتساهل مع الفريقين. فنالوا مكانة عليا في المجال الأدبي والاقتصادي والاجتماعي، بل أن بعضهم نعم بوظائف سياسية وإدارية مرموقة.

----

162 - الفكر العربي الديني المسيحي، دكتور مشير باسيل عون، ص 51

163 - المسيحية والحضارة العربية، جورج شحاتة قنواتي، ص 97

الفصل الثاني

محطات في تاريخ المسيحية العربية

رزحت البلدان العربية من القرن العاشر وحتى بدايات القرن العشرين تحت حكم وغزوات السلاجقة والصليبين والمغول والعثمانيين. أثناء هذه الحقبة من التاريخ عاشت المنطقة بمختلف أوطانها وأديانها قلاقل واضطرابات وحروب مريرة، بعد الإستقرار النسبي الذي خلف الفتوحات الإسلامية.

ضعفت كنائس الشرق جراء هذه الحروب، لاسيما إبان الغزو المنغولي للمنطقة، الذي ابتدأ بالقرن الثالث عشر، وكان له الوقع الأكبر على مسيحيي الشرق عامة، والعراقيين منهم خاصة، إذ تألب المغول على الآشوريين ولاحقوهم، ولم ينجى من سيفهم سوى الذين لاذوا بالفرار إلى المناطق الجبلية.

جاءت الحملات الصليبية إلى الشرق ما بين 1096-1291م، ومع مجيئها انتهت سلطة بيزنطة وحلت قوة روما البابوية. [164] لكن هذه الحملات لم تقدم للمسيحيين في المشرق سوى المزيد من الأزمات في علاقتهم بمحيطهم الإسلامي. فعند دخول الصليبيين مدينة أنطاكية سنة 1098م، لتحريرها من السلاجقة الأتراك، قتلوا ما يقارب مائة ألف مواطن من بينهم مسيحيون كثر. كذلك فعلوا بالقدس في السنة التالية وقتلوا من أهاليها المسلمين والمسيحيين 70 الفاً. ولمّا احتل المماليك [165] إنطاكيا سنة 1268 كالوا للمسيحيين فيها الكيل أكيالاً. فقتل السلطان المملوكي الظاهر بيبرس من أهلها 17000 نسمة، وأسر مائة ألف، ثم تركها للحرق والنهب، وعلى هذا المنوال فعلوا ببقية المدن. كان هذا العصر مليئاً بالقلاقل والحروب وسيئاً للغاية على المسيحيين المشرقيين. فقلَّ شأنهم وخسروا مراكزهم الاجتماعية وتقوقعوا في الأحياء والقرى.

استولى العثمانيون على سوريا ومصر سنة 1516، لكن معاناة المسيحيين لم تنتهي بمجيئهم، إذ خضعوا لأمزجة الولاة، الذين منعوهم من السير على الأرصفة وأجبروهم على السير وسط الشارع مع الدواب والعربات، وألزموا نساءهم بوضع غطاء على الرأس.

نالت فرنسا حق حماية مسيحيي المشرق، [166] ومع وصول نابليون إلى الشرق (1798 – 1801م) جاءت أفكار التنوير والتحرر، الأمر الذي استقطب بعض الإرساليات الكاثوليكية إلى الشام. فأنشأت مدارس اعتنت بتخريج عددا وافرا من الكهنة كانوا بمثابة البذرة للتجديد الروحي والثقافي الذي عايشه الشرق فيما بعد. وقد بلغ هذا التجديد ذروته مع انبثاق عصر التبشير في القرن السابع عشر، كما بقدوم الإرساليات البروتستانتية إلى الشرق.

---

164 - نشأت الصراعات بين الإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية بلغتها اليونانية) وبين الإمبراطورية الرومانية الغربية (بلغتها اللاتينية) على أثر الانشقاق الحاصل بينهما سنة 1054 حين أصدر كاردينال هوبرت قرارا بابويا بحرمان بطريرك القسطنطينية سيرولوريوس. ورد الآخر بالمثل يؤيده بطاركة الإسكندرية وإنطاكيا والقدس. تمثلت هذه الاختلافات، التي أدت إلى الانشقاق بين الكنائس الغربية والشرقية في منافسة بخصوص السلطة الكنسية بين بطريرك القسطنطينية يؤيده الإمبراطور البيزنطي، وبين باب روما في الغرب، الذي أصر على أن يكون الرئيس الأعلى لكافة كنائس الأرض. تعمق الانشقاق في الغزوة الصليبية سنة 1204 للقسطنطينية ونهبها. فشلت المحاولات التي اتخذها الجانبان للصلح بعد عودة الحكم البيزنطي إلى القسطنطينية سنة 1261، ولمّا عزم الأتراك على غزو القسطنطينية لم يحصل قسطنطين الحادي عشر على المعونة المرجوة من روما. فسقطت المدينة وقتل آخر إمبراطور بيزنطي وتحولت القسطنطينية إلى إستانبول.

165 - هم سلالة من الجنود كانوا عبيداً من أصول تركية في أسيا الوسطى. حكموا مصر وبلاد الشام والعراق والجزيرة العربية، وهزموا الصليبيين ثم تصدوا لتيمورلنك واستعادوا ما احتله التتار في بلاد الشام والعراق.

166- رغم أن الدستور الرسمي لا يخول فرنسا إلا بحماية رعاياها، لكنها اضطرت إلى فعل ذلك بعد تسرّب الضعف إلى الدولة العثمانية بحيث لم تعد قادرة على حماية المسيحيين من المظالم.

اخترقت الكاثوليكية كنيسة بلاد الشام من بابها الواسع والرحب بأن أوفدت روما بعثات دينية إليها للاتصال بالكنائس الشرقية والاعتناء بالتعليم من خلال إنشاء مدارس وأخويات. وقد **"لاقى المرسلون الغربيون ترحيباً وقبولاً من السلطات الكنسية المحلية، وسمحوا لهم بالوعظ في كنائسهم".**[167] أما في مصر فلم يلقى الكاثوليك نجاحا ملموسا كذاك الذي لقوه في فلسطين وسوريا ولبنان والعراق. فاعتنق الكثلكة عدد ضئيل من الأقباط خلال القرن الثامن عشر. ولم تنشئ لهم روما بطريركية إلا في أواخر القرن التاسع عشر.

وفي سائر الدول العربية بقي الشرع الإسلامي هو المصدر الأساسي للتشريع، بينما حافظت الطوائف المسيحية على كيانها القانوني ونظام الأحوال الشخصية الخاصة بها. بيد أن روحاً جديداً أخذ يهب، فانبعثت في القرن التاسع عشر فكرة القومية العربية، ومع انطلاق النهضة الأدبية راح العرب يطالبون بحرياتهم السياسية وكان للمسيحيين شأن هام في النهضة الأدبية وإيقاظ الروح القومية عند العرب.

أطيح بالسلطان عبد الحميد الثاني سنة 1908 وخرج من قصر يلدز، وثار العرب إبان الحرب العالمية الأولى على الأتراك بانضمامهم إلى صفوف الحلفاء. فكانت نتيجة الحرب انكسار العثمانيون وانسحابهم من المناطق العربية.

تجنباً للإطالة، أضع الأحداث المهمة من تاريخ المسيحية العربية في الجدول التالي:

642 - احتل العرب مصر وخرج البيزنطيين نهائيا من الإسكندرية.

680 - بداية مجمع القسطنطينية الخاص بالكنائس الخلقيدونية للنظر في العقيدة المونوثيلية. [168]

726 - بداية حرب الأيقونات[169] الأولى في القسطنطينية.

944 - استولى البيزنطيون على مدينة الرها.

969 - استولى البيزنطينيون على كيليكيا وانطاكية. [170]

1054 - استولى البيزنطيون على أرمينيا وحاولوا إلحاق الأرمن بالمذهب الرسمي.

1071 - الزحف السلجوقي الأول وسيطرة الأتراك على شمال سوريا والقضاء على النفوذ البيزنطي في شمالها، كما وإنهاء النفوذ العربي في بلاد الشام. وكان هؤلاء أقل تسامحاً من العرب مع المسيحيين. في السنة ذاتها سيطروا على أرمينيا، التي نزح بعض شعبها إلى أورفا وبعضهم إلى كيليكيا، حيث أسسوا أرمينيا الصغرى.

1095 - بداية الحملة الصليبية الأولى. [171]

1099 - تأسيس مملكة القدس الصليبية، وتعيين بطريرك لاتيني في القدس، فأصبح يوجد عليها بطريركين.

----

167 - الأرشمندريت اغناطيوس ديك، التأثير الأوربي على المسيحية في سوريّة خلال الحكم العثماني، والحضور المسيحي في حلب خلال الألفين المنصرمين ج2 مجلد1 ص 36-45

168 - في محاولة بيزنطية لتخفيف حدة الصراع بين الملكيين واليعاقبة دعا هرقل إلى المونوثيلية، وتقول صيغة المونوثيلية: "أن طبيعتي المسيح اتحدتا في مشيئة واحدة وطبيعة واحدة وقدرة واحدة". رفض الكاثوليك ومن ضمنهم الموارنة التعريف الجديد واعتبروه هرطقة، بينما قبل به أساقفة غير خلقيدونيين في أرمينيا ومصر.

169 - بدأت سنة 726 عندما حطم الإمبراطور ليون الثالث أيقونة للمسيح وجدت فوق باب قصره في القسطنطينية، ولم تهدأ هذه الحرب إلا سنة 843م ، حيث عاد الهدوء والسلام. كان بداية صراع فكري حول تكريم الصورة وتحريمها، ما لبث أن تحول إلى صراع دموي، وإلى إقصاء عدد من الرؤساء الروحيين وملاحقتهم مع من تبعهم من لاهوتيين ورهبان، وسميت تلك الحقبة "حرب الأيقونات".

170- قاد الاحتلال البيزنطي للرها وانطاكيا إلى تعميق الهوة بين الأرمن والسريان من جهة والملكيون أنصار الكنيسة البيزنطية من جهة أخرى بسبب الضغوط التي مارستها هذه لحمل الأرمن والسريان على قبول المجمع الخلقيدوني.

171 - نشأت فكرة الحملات الصليبية نتيجة مضايقات عاناها مسيحيو الشرق وبعض الحجاج المسيحيون، الذين قدموا من الغرب لزيارة الأماكن المقدسة في أورشليم. وكان التعسف السلجوقي أحد أسبابها. تحمّس الناس في الغرب لإنقاذ إخوانهم وعزموا على تحرير الأراضي المقدّسة. كان هدف الحملات في بادئ الأمر دينياً، ثم انقلب بسرعة سياسياً واقتصادياً وتوسّعياً على حساب الدولة الإسلامية وباستغلال مسيحي الشرق. كانت للحملات الصليبية آثار سيئة على علاقة المسيحيين المشرقيين بمسيحي الغرب، وهي العلاقة التي شابها دوما سؤ فهم وعداء. ولم تنجح المجامع الكنسية بعد ذلك في تضميد الجراح وإعادة العلاقة الروحية إلى نصابها.

1101 - تعيين بطريرك لاتيني على كرسي إنطاكية، فأصبح يوجد عليها أربعة بطاركة.

1182 - مفاوضات بين بطريرك القدس اللاتيني والموارنة لإلحاقهم بكرسي روما.

1187 - استعادة القدس من قبل المسلمين على يد صلاح الدين الأيوبي.

1213 - اعتراف البطريرك الماروني ارميا العمشيتي بسلطة روما في مجمع لاتران.

1268 - استعادة إنطاكية من قبل المسلمين وانتهاء بطريركية إنطاكية اللاتينية.

1375 - مماليك مصر يقضون على دولة أرمينية الصغرى في كيليكيا.

1437 - رسامة الجاثليق شمعون الباصيدي بطريركا على كنيسة المشرق الآشورية، وهو الذي سن قانون وراثة الكرسي البطريركي فيها.

1453 - سقوط القسطنطينية بيد محمد الفاتح وتحكم السلاطين بالبطاركة وتفويضهم هناك بالمسئولية على أرثوذكس العالم العربي.

1455 - إرسالية الأخ غريفون الفرنسيسكانية إلى الموارنة وبدء إدخال العقائد والعادات اللاتينية في كنيستهم.

1553 - انفصال كنيسة الكلدان عن كنيسة المشرق الآشورية والتحاقها بروما.

1659 - انفصال كنيسة السريان الكاثوليك عن كنيسة السريان والتحاقها بروما.

1729 - اعتراف البابا بكنيسة الروم الكاثوليك المنفصلة عن كنيسة الروم والمتحدة بروما.

1819 - بداية العمل المرسلي البروتستانتي في بلاد الشام.

1824 - تأسيس كنيسة الأقباط الكاثوليك في مصر.

1847 - إعادة إحياء كنيسة القدس اللاتينية.

1848 - صدور الفرمان السلطاني العثماني، الذي تضمن الاعتراف بالطائفة البروتستانتية في الشرق.[172]

1899 - تنصيب أول بطريرك على القبط الكاثوليك وهو كيرلس مقار.[173]

1930 - كاثوليكوس الأرمن في سيس يغادر تركيا مع من تبقى من شعبه ويقدم إلى لبنان. أما الكاثوليكوس الأعلى في اشميازين فخضع بعد الحرب العالمية الأولى للسوفيات.

1964 - انقسام كنيسة المشرق الآشورية نتيجة تغيير التقويم إلى كنيستين، أتباع التقويم الجديد وأتباع التقويم القديم.

1974 - تأسيس مجلس كنائس الشرق الأوسط للعائلة الأرثوذكسية والعائلة الأرثوذكسية المشرقية والعائلة الإنجيلية.

1990 - انضمام العائلة الكاثوليكية بكنائسها السبع الموجودة في المنطقة لمجلس كنائس الشرق الأوسط.

----

172 - كان حضور البروتستانت قبل ذلك يتمثل في الإرساليات التبشيرية، ولم يكن لهم كيان كنسي. بعد الاعتراف بهم ككنيسة ضمن نظام المِلل في الدولة العثمانية، تم تنظيم أول كنيسة إنجيلية في بيروت، تبعتها كنيسة في حاصبيا عام 1852، ثم كنيسة حلب عام 1853 ثم في حمص.

173 - تاريخ الكنيسة القبطية، القس منسى يوحنا، ص 548 . وتقول بعض المصادر برجوعه عن الكاثوليكية.

الفصل الثالث

ميلاد طائفة مسيحية جديدة

مارتن لوثر والنهضة الروحية

انحدر المستوى الروحي للكنيسة الكاثوليكية في أوربا في العصور الوسطى حتى وصلت إلى أدنى درك في القيم الأخلاقية وأصبحت مركزا لبلاط الغنى العالمي الفاسد أكثر منها قيادة روحية للشعب، الذي حرم من كل بركة إلهية مجانية. فبات المؤمن يدفع لكل خدمة تقدم له، والأبشع من ذلك، أنه دفع من أجل "صكوك غفران" باعتها الكنيسة بمرسوم بابوي.

تولدت نتيجة هذا الوضع حاجة ماسة إلى الإصلاح داخل الكنيسة. فنهض وليم أوكهام ومارسيليوس البادوفي ينتقدان الفساد ويدعوان إلى الإصلاح. وجاء ويكليف (1328 – 1384) ليضع كلام الله فوق كل سلطة أخرى. ثم عقبه جون هس (1373 – 1415) الذي دين بالهرطقة وحكم عليه بالموت حرقا.

هؤلاء وغيرهم مهدوا لقيام الراهب المصلح مارتين لوثر في مطلع القرن السادس عشر، ومعه قامت حركة الإصلاح التي سميت البروتستانت، أي المحتجين، والتي ما لبثت أن تطورت لتصبح طائفة مسيحية جديدة تنادي بالسلطة المطلقة للكتاب المقدس، الذي ترجمه لوثر إلى الألمانية الدارجة.

نادى لوثر وأتباعه بكهنوت جميع المؤمنين، وبإمكانية الغفران المجاني بالإيمان دون الحاجة إلى وساطة كنسية وصكوك غفران بابوية، وأن الخلاص يأتي نتيجة علاقة شخصية مباشرة بين المؤمن وإلهه على أساس فداء المسيح بالموت والقيامة.

تُرجم الكتاب المقدس وانتشرت المعرفة الروحية، التي خلقت في أوربا تغييرا في الحياة الشخصية وعلى الصعيد الاجتماعي والسياسي والفكري والديني، وقادت المواطن العادي البسيط إلى التحرر الفكري وأوجدت أمامه عالما مفتوحا من الإمكانية الروحية والعقلية. فازدهر الأدب والعلم وتأسست مدارس لاهوتية عريقة في ألمانيا وانجلترا.

انبثقت عن الكنيسة البروتستانتية الأم حركات انجيلية عدة شعرت بمسؤوليتها تجاه العالم. فتأسست في أوربا مئات الإرساليات التبشيرية، كان جل قصدها إبلاغ رسالة الخلاص الإنجيلية إلى العالم أجمع. ونشأت جمعية الكتاب المقدس، الذي ترجم إلى لغات كثيرة بلغ عددها مع نهايات القرن العشرين أكثر من 2000 لغة ولسان.

البروتستانت في بلاد العرب [174]

لم تستثنى المسيحية المشرقية من الإصلاح البروتستانتي، إذ مع مطلع القرن التاسع عشر قدمت الحركات التبشيرية الإنجيلية إلى العالم العربي وساهمت مساهمة فعالة في نهضة المسيحية العربية على صعيد العلوم الدينية والدنيوية، وكانت

----

174 - المعلومات مستقاة من:1 - تاريخ الاداب العربية، الأب لويس شيخو 2 - المسيحية في سوريا، الارشمندريت أغناطيوس ديك 3 - السينودس الانجيلي الوطني في سوريا ولبنان 4 - تاريخ الكنيسة القبطية، القس منسى يوحنا 5 - المجموعات العرقية والمذهبية في العالم العربي - ناجي نعمان

المقدمة لهذه النهضة ترجمة الكتاب المقدس ونشر تعاليمه بين عامة الشعب المسيحي. ويعود تاريخ بدء نشاط الإرساليات الإنجيلية إلى العام 1819 في فلسطين وسوريا، وقد تركز ذلك النشاط بداية في بيروت وما حولها، بعد أن وصل إليها مرسلان هما القس إسحاق برد، والقس وليم غودل سنة 1823 م. ومن بيروت أخذت الإرساليات الانجيلية بتأسيس المطابع ودور النشر والمدارس والكليات. منها، المدرسة الانجليزية، والكلية الأميركية، ومستشفى العصفورية، وميتم صيدا المعروف بدار السلام. ومن أهم الإنجازات، تأسيس الكلية السورية الإنجيلية في بيروت عام 1866، التي درّست العلوم الطبية والطبيعية والدينية والعقلية والأدبية والفلسفية باللغة العربية.

اشتهر من المرسلين ألأمريكان الدكتور عالي سميث والدكتور طمسون والدكتور فان دايك وهنري فورست. وللأخيرين، بحسب وصف الأب شيخو، مآثر حسنة من مقالات نشرت في المجلة الشرقية الأمريكية التي كانت تباري بمقالاتها المجلات التي تقدمتها. وقد انكب هؤلاء المرسلين على درس اللغة العربية حتى أتقنوها، وكان من ثمار اجتهادهم ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة العربية.

وصل المرسلين إلى مدينة صيدا وتأسست فيها سنة 1849 كنيسة رعاها كل من القس جورج فورد والقس وليم أدي، كما وعملوا على تأسيس مدرسة لتعليم الصغار مبادئ القراءة والحساب وبعض المهن من نجارة وحدادة.

وكانت الكنائس الانجيلية الحرة في اسكتلندا وايرلندا قد اختارت إرسال المبشرين جراهم وألن إلى دمشق. وفور وصولهما سنة 1843 بدءا بتوزيع الكتاب المقدس والوعظ والكرازة والخدمة في المنازل. وفي سنة 1846 انضم إلى الإرسالية في سوريا القس جيمس برنت، والدكتور بولدنغ. ولم يمضي على وجود المرسلين بضعة سنوات حتى افتتحوا في دمشق عيادة طبية مجانية، ومدرستين، وفي سنة 1866 افتتحوا كنيسة باب توما.

وفد العديد من المرسلين إلى سوريا في تلك الفترة الزمنية، وتأسست كنائس في اللاذقية والغسانية والغنيمية وحمص وغيرها من مدن وقرى سورية. واعتنت الكنائس الإنجيلية بنشر المعرفة بواسطة المدارس الخاصة التي أشادتها في ظهر الكنائس. ولم تقتصر الرسالة الإنجيلية على التبشير بحق الإنجيل، وإنما تعدتها إلى مساهمة في المجالات الاجتماعية والعلمية والاعتناء الصحي.

في القدس أقيم أسقف مشترك للأنكليكان واللوثريين، وأشعوا بمدارسهم ومؤسساتهم الخيرية والطبية في سائر أنحاء فلسطين وشرق الأردن. يقول الأرشمندريت اغناطيوس ديك: **"لم ينجم عن الرسالات الإنجيلية قيام مجموعات كنسية كبيرة إذ ظل الانتماء إلى الإنجيليين محدوداً وضئيلاً. إلا أنها أدت على المستوى الثقافي دوراً يفوق عدد مؤمنيها وكانت حافزاً للكنائس الشرقية لتجدد أساليبها الرعوية والتعليمية".** [175]

مع نهاية القرن التاسع عشر وفد المرسلون الإنجيليون إلى الجزيرة الفراتية، وتحديداً إلى الجزء الواقع في الجنوب الشرقي من تركيا الحالية. اشتهرت منهم مرسلة أمريكية لقبت مدام ترتل، جاءت إلى ماردين وعملت على نطاق واسع في كل نواحي ولاية ديار بكر. فافتتحت في قرى عديدة كنائس صغيرة تضمنت مدارس لتدريس الكتاب المقدس للأطفال. وكانت مدينة مديات نقطة انطلاق للحملات التبشيرية، حيث نشأت جماعة إنجيلية من المثقفين والوجهاء وسم عليهم أسقفاً عبد المسيح حنوش.

بعد المذابح التي جرت لمسيحيي تركيا مطلع القرن العشرين، نزح السريان إلى القسم السوري من الجزيرة الفراتية وأسسوا مدينتي القامشلي والحسكة. معهم جاء الإنجيليون من مديات وما حولها وأسسوا في الجزيرة عدة كنائس ومدارس خاصة اشتهرت بتعليمها العالي.

----

175 - الارشمندريت أغناطيوس ديك "المسيحية في سوريا"، المجلد الثالث، من الفتح العثماني إلى مطلع الألفية الثالثة.

أما مصر فقد دخلتها الإرساليات الإنجيلية كذلك الأمر في منتصف القرن التاسع عشر، وقدومهم كان له رد فعل عنيف من جانب الأقباط. ويعتقد أن أول مرسلين وصلا إليها هما مستر لانش و يوحنا هوج. فأسسوا بداية الكنيسة الإنجيلية المشيخية الأولى في منطقة درب الجنينة بحي الموسكي بالقاهرة سنة 1860م. بعدها ببضعة سنوات نشأت كلية اللاهوت الإنجيلية بالقاهرة، ولها يعود الفضل في تخريج العديد من الخدام والمرسلين في مصر وباقي الدول العربية.

اهتمت الكنيسة الإنجيلية في مصر بالتعليم واعتبرته جزءاً من رسالتها الأساسية، فأقامت أول مدرسة للبنات في حارة السقايين بالقاهرة في يونيو 1860م.، وكلية أسيوط سنة 1865، وكلية رمسيس للبنات سنة 1910م. والتي تعتبر أكبر مدرسة لغات للبنات في مصر. يضاف إلى هذا عملهم الجليل في المجال الطبي والاجتماعي، كالاهتمام بالمعاقين والأيتام والمكفوفين، وإدارة مستشفياتهم الخاصة. ولا نهمل ذكر نشاطهم ضمن مشروع محو الأمية في صعيد مصر.

توسع الإنجيليون في نشاطاتهم الكرازية في بلدان الخليج العربي والعراق وشمال إفريقيا. فكانوا أداة لنهضة إصلاحية نوعية أعادت للمسيحية مركزها الكرازي.

الفصل الرابع

المسيحيون والانتماء البيئي والثقافي

لا يُنكر على المسيحيين مقدرتهم الفائقة على التكيّف في المجتمع العربي وسبقهم إلى نهضته وبناءه. فالتاريخ يحكي قصة عشقهم للآداب العربية ولغة الضاد، ويبرزهم في طليعة رواد القومية العربية. لكن في العقود الأخيرة طرأت تغيرات كبيرة في أحوالهم ومواقفهم من العرب والعروبة أفقدت الكثيرين منهم ذلك الإحساس الصارم بانتمائه إلى وطنه وأرض أجداده.

مشكلة الانتماء إلى العروبة عالقة في ذهنية المسيحي ولا تبرحه. فمع أنه يعيش ضمن جغرافية الوطن العربي، ورغم أنه تشبع بالثقافة العربية، التي ساهم أجداده في بناءها، يرفض الانتماء إلى العروبة. لا بل هنالك من يؤيد فكرة انعدام وجود مسيحية عربية، ويفضل أن يُزج في خانة الأقليات على أن يعترف بعروبة لا يشعر بانتمائه إليها.

يصف الدكتور جوزف أبو نهرا واقع المسيحي الشرقي بأنه **"يعيش غربتين: غربة دينية الطابع بسبب الكنائس المفككة والتراثات الحضارية المختلفة ... و يعيش كذلك غربة زمنية في ظل أنظمة تتناقض أحيانا مع مبادئه الدينية وحقوقه الإنسانية، فيشعر أبناؤه بتمزق داخلي بين الولاء لقيصر والانتماء إلى عالمية المسيح، بين قدرهم الإنساني وقدرهم اللاهوتي. أمام هذا الضياع، يعاود المسيحي اليوم في الشرق الخياران اللذان ما برحا منذ البدء يتنازعانه: الالتزام حتى الانعدام، او الانسحاب حتى الاغتراب. وأسوأ الحالين هو ثالثهما. وقفة الحياد"**.[176]

والتنكر للعروبة له عند المسيحي دوافع عديدة، منها ما يقع في دائرة الصواب ومنها ما يتجنبها:

1 - ربط العروبة بالإسلام، الأمر الذي يخرج المسيحيين العرب من العروبة بكل مضامينها، ويزيد عندهم الشعور بالاغتراب الاجتماعي. هذا الفكر ينبع من المصادر الإسلامية عينها. مثالاً على ذلك: **"عن أنس، أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: حب العرب إيمان، وبغضهم كفر. من أحب العرب فقد أحبني، ومن أبغض العرب فقد أبغضني"**.[177] عليه ذهب بعض المسيحيين على أن أفضل السبل للتحرر من هيمنة الإسلام هي الانعتاق من دائرة الانتماء الثقافي العربي.

2 - النزعة العنصرية وتعظيم العروبة الإسلامية. قال ابن تيمية: **"فإن الذي عليه أهل السنة والجماعة: اعتقاد أن جنس العرب أفضل من جنس العجم، عبرانيهم وسريانيهم، روميهم وفرسيهم وغيرهم"**. [178] وخلاصة هذه النظرية التعظيمية، أن كل شيء موجود في التراث العربي مصدره العروبة الإسلامية. هذا الاعتقاد ليس من الصواب بشيء، وحري بالمسلمين أن يعوا بأن المسيحية ليست دخيلة على الشرق العربي، وأن المسيحيين ليسوا ضيوفاً على المسلمين، بل هم أصحاب البيت وصانعو التاريخ العربي معهم.

3 - نظرة الإسلام إلى المسيحي ومعتقداته وما نتج عن هذه النظرة من معاناة. هذه النظرة، رغم كل ما اتُخذ ويُتخذ من محاولات لتجميلها، تضع المسيحي في صف المشركين بالله. وطالما بقى المسيحي يؤمن بألوهية المسيح والله المثلث الأقانيم فهو عند المسلم كافر منبوذ.

----

176 - البروفسور جوزف ابو نهرا، كنيسة العرب: إرث الماضي وتحديات الحاضر، جريدة النهار، الاحد 10 تشرين الأول 2004

177- فيض القدير شرح الجامع الصغير (للسيوطي)، الإمام عبد الرؤوف المناوي، ص 370 حرف الحاء

178 - اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية، 1/ 419

4 - تهميش دور المسيحي في المجتمع العربي. وعليه فإن اعتبار المسيحي نفسه جزءاً من المجتمع العربي غير مرتبط فقط بموقفه، بل كذلك بالأنظمة السياسية والاجتماعية، التي قد تسمح أو لا تسمح له بأن يكون جزءاً منها.

5 - خجل بعض المسيحيين بالعروبة، لربط الغرب لها ظلماً بالجهل والتخلف. هذه ظاهرة لم تقتصر على المسيحيين العرب وحدهم، بل ثبت وجودها في من خالفوهم الاعتقاد من مسلمين ولا دينيين عرب.

6 - التشدد الإسلامي، وما نتج عنه من إرهاب استدعى إلى تغيير نظرة الغرب في العرب والتشدد تجاههم. هذا التشدد كان حافزا للعرب من مسيحيين وخلافهم إلى نكران العروبة.

7 - يقين المسيحي بأنه من جذور غير عربية، أي آرامية، سريانية، قبطية، أرمنية، آشورية، فينيقية. غير أن التنكر للعروبة من هذا المنطلق ينم عن فهم خاطئ لمقتضيات الانتماء، الذي لا يلغي بحال من الأحوال الأصول القومية والأثنية، بل يقتصر بالتمام على البيئة الجغرافية والثقافية. فالعروبة نسبت لكل من وجد في هذه الدائرة وكتب وتكلم وأبدع باللغة العربية.

8 - ويوجد بين مسيحيي الشرق من احتاروا في انتمائهم القومي، مما اضطرهم إلى الاستعارة المذهبية، بدلاً عن القومية الحقيقية.

علينا كمسيحيين مشرقيين أن ندرك، أنه مهما اختلفت القوميات والعقائد سوف تظل الجغرافية والثقافة هي ما يحدد انتماء الشعوب. وإن كنا لا نؤيد الانصهار في القومية العربية إلى حد إنكار الأصول، لا نغفل بأننا وجدنا في بيئة عربية وأصبحنا جزءا من نسيجها الثقافي والحضاري. وكشعوب تعيش منذ أربعة عشر قرنا في سياق حضارة عربية نرفض أن تكون حكراً على المسلمين دوننا، كما ونرفض أن ينظر إلينا مجرد أقلية وجسم غريب في أوطاننا، فنحن أبناء الشرق ولنا فيه كما لغيرنا.

تحدث المسيح في صلاته الشفاعية لله الآب، فقال عن تلاميذه: **"ليسوا من العالم ... أنا أرسلتهم إلى العالم".**[179] وقوله يؤكد بأن الانتماء إلى عالم غريب لا يتعارض البتة مع رسالتنا المسيحية ذلك، لأن من جوهر هذه الرسالة الذهاب إلى الناس والالتقاء بهم في أماكن تواجدهم، وهذا يستدعي منا انتماءاً جغرافياً وثقافياً. وطالما أن هناك أغلبية مسيحية ترفض حقيقة الانتماء إلى الثقافة العربية الواحدة، فإن كل مساعيهم للحفاظ على تأثير الرسالة الإنجيلية والخطاب المسيحي في العالم العربي ستبقى مشلولة عقيمة.

لا يمكننا تجاهل الحقيقة، فالمسيحية استعربت منذ القرن الثامن، ولا سبيل لنا في الإبقاء عليها حية وفعالة إلا ضمن العروبة، التي نحن جزءاً من نسيجها. فعلينا أن لا نعيش التقوقع والانغلاق على الذات والانطواء على النفس داخل المجتمع الذي أوجدنا الله فيه شهودا على نعمة الإنجيل. يقول مشير باسيل عون ضمن شرحه لمقتضيات النهوض والتجديد والمعاصرة: **"إن الشهادة الإنجيلية تقتضي أن تنغلّ مضامين الحقائق الخلاصية في نسيج المجتمع الذي يحيا فيه شهود السيد المسيح. وبما أن واقع المجتمعات العربية التي يحيا فيها المسيحيون العرب يهيمن عليه بطبيعة الحال الانتماء الديني الإسلامي والمبايعة الثقافية العربية، فإن التعبير عن الشهادة المسيحية في حضن هذه المجتمعات ينبغي له أن يراعي حقائق الانتماء هذا وقرائن المبايعة هذه".**[180]

----

179 - إنجيل يوحنا، الفصل 17

180 - الفكر العربي الديني المسيحي، مشير باسيل عون

الفصل الخامس

الهجرة المسيحية ومسبباتها

حفظ المسيح كنيسته التي أحبها بلا حدود، وبقيت بفضل قوته صامدة أمام تحديات الأزمنة الغابرة، لكن اليوم يتهددها خطر جديد لم تعرف مثله قبلا. هذا الخطر يتجسد في ظاهرة الهجرة المسيحية إلى خارج العالم العربي، التي ازدادت بشكل ملحوظ في بداية القرن المنصرم. فمن يومها وإلى اليوم والمسيحيون في سفر دائم نحو بلاد الغرب بحثا عن حضن آمن واستقرار دائم.

إنّ النتائج السلبية للهجرة تقع بالدرجة الأولى على مسيحية المشرق، لكنها من ناحية أخرى تمس المجتمعات العربية برمتها. ولمّا أدرك حكماء الأمة وبعض حكامها أن استمرار هجرة المسيحيين وتناقص أعدادهم في المنطقة سيفقد البلدان العربية أحد أهم مكوناتها الحيوية، دقوا نواقيس الخطر، ولكن التعصب أبى أن يسمع رنينها.

يرسم قادة الكنيسة في المشرق العربي صورة قاتمة لهجرة المسيحيين من أوطانهم الأصلية. من ملامح هذه الصورة: [181]

- هجرة أرمنية كثيفة، أدت إلى إقفال كنائس كثيرة في الوطن العربي.
- هجرة قبطية متزايدة في الأعوام العشرين الماضية أدت إلى تناقص ملحوظ في أعداد الاقباط داخل مصر.
- هجرة كلدانية أشورية جماعية من العراق، لاسيما بعد الاجتياح الأمريكي للبلاد سنة 2003 .
- هجرة من لبنان، ابتدأت سنة 1975 بحلول الحرب الأهلية ولم تنتهي للآن.
- هجرة مضاعفة من سوريا.
- هجرة كثيفة ومقلقة من فلسطين.

لتوضيح الصورة يستوجب الاستعانة بالأرقام والإحصاءات، مع كون الإحصاءات في هذا الشأن غير دقيقة و أحيانا متضاربة، والأرقام هنا تبقى في حدود التقديرات ولا تتعداها، رغم مصداقية المصدر. يقول الدكتور طارق متري: **"ليست المجازفة بتقديرات حول أعداد المسيحيين ونسبتها إلى أعداد مواطنيها خالية من المخاطر. فهي، أياً كان من أمر رصانتها العلمية، تتحول بسرعة إلى مسألة خلافية تتحكم بها حسابات معنوية وسياسية تتعدى نطاق القياس والمقارنة. إلا أن ذلك كله لم يمنع بعض المتخصصين والكتّاب، العرب والأجانب من الاتفاق على بعض التقديرات".** [182]

لا شك أبدا أن انخفاض نسبة المسيحيين في العالم العربي هو من البديهيات حتى في عدم وجود الهجرة، إذا أخذنا بعين الاعتبار انخفاض معدل المواليد مقارنة بها لدى المسلمين. ولكن هذا التناقص لا يغير في المعادلات كما بواسطة الهجرة. فالأرقام الناتجة عن الإحصاءات تثير القلق، وهنا نظرة عليها:

----

181 - الإحصاءات مستندة على البيان الختامي لمؤتمر البطاركة السادس عشر، من 16 الى 20 تشرين الاول 2006 بزمار - لبنان

182 – عن القس الدكتور عيسى دياب في مقالة بعنوان "المسيحيون الشرقيون"، جريدة النهار الأحد، 4 أيار 2003

كان للمسيحيين في مطلع القرن العشرين حضور قوي في أوطانهم، لكنه لم يفتأ أن تراجع تدريجيا إلى أن غاب كليا في بعض المناطق والمجتمعات. تمثل هذا الحضور بنسبة بين السكان بلغت حد الربع، وأصبحوا في العام 1999 لا يزيدون عن 10 في المائة. ثم انخفضت النسبة إلى أن أصبحت اليوم لا تتعدى 5 في المائة من مجموع سكان العالم العربي.[183]

سوريا: انخفاض من حوالي 33 % في مطلع القرن العشرين إلى 16 % في سبعينات القرن الماضي، إلى أقل من 10 % اليوم. ابتدأت هجرة المسيحيين السوريين بينما كان العثمانيين لا زالوا في السلطة، وبشكل خاص بعد الفتنة الطائفية سنة 1860 في دمشق، والتي أودت بحياة أكثر من 4000 مسيحي وإحراق أحيائهم.

لبنان: من 55 % في العام 1930 إلى أقل من 30 % اليوم. ويتوقع انحسار العدد إلى ما دون 19 % في العام 2020. وما يزيد المخاوف أن لبنان يخسر موقعه المهم كملاذ آمن لمسيحيي المشرق.

فلسطين: إجمالا انخفض العدد فيها من 17 % إلى ما دون 5 %. في القدس كانت النسبة سنة 1922 حوالي 50 %، انخفضت اليوم إلى 2 %. ويشكل المسيحيون اليوم ما نسبته 1,4 % من جميع الفلسطينيين في الأراضي الخاضعة للسلطة الفلسطينية.[184] في بيت لحم انخفض العدد من 85 % عام 1948 إلى 12 % سنة 2009. ومن أصل 53 قرية مسيحية في نابلس ومحيطها، لم تبق رعيّة لكنيسة واحدة.

مصر: يبلغ معدل نسبة المسيحيين حوالي 8 إلى 10 % من أصل 70 مليون نسمة، بعد أن كانوا يشكلون ضعف هذه النسبة قبل أقل من خمسين سنة.[185]

العراق: بحسب التعداد السكاني لسنة 1977 كان عدد المسيحيين 1.7 مليون نسمة. أنخفض العدد سنة 1987 إلى 1.2 مليون. وفي سنة 2003 بلغ العدد 700 ألف، غادر نصفهم العراق في الأربع سنوات الأخيرة، واليوم باتوا لا يشكلون أكثر من 1.5 % من مجموع سكان العراق.

الجزيرة الفراتية: بأجزائها الثلاثة، السوري والعراقي والتركي. كان المسيحيون فيها سنة 1910 يشكلون ما يقارب 35 % من عدد السكان. ذبح الكثيرون منهم خلال الحرب العالمية الأولى على يد الأتراك العثمانيون والأكراد.[186] على أثرها ابتدأ المسيحيون بإخلاء الجزيرة التابعة لتركية إلى أن انعدم وجودهم فيها تماما. وبعد المجزرة الثانية على الآشوريين سنة 1933 من قبل الجيش العراقي والأكراد، هجر غالبيتهم إلى سوريا ولبنان ومن هناك إلى الغرب. واللافت خلال العقود الخمسة الماضية إخلاء شبه تام لبعض القرى والمدن الصغيرة في محافظة الحسكة السورية، وهكذا فإن الجزيرة بكل أقسامها باتت في خطر من أن تفرغ تماما، وبزمن قياسي، من أهلها وسكانها الأصليين وصانعي حضارتها.

والهجرة المسيحية لم تأتي من فراغ، فهنالك جملة من الأسباب والدوافع الدينية والاقتصادية والعرقية والسياسية والقانونية وغير ذلك. لكن في كل الأحوال لم تأتي الهجرة برضى القلب، بل غالبا إكراهاً أواضطراراً. ومن الأسباب أذكر:

1 - **العامل المادي والاقتصادي.** إن قلة فرص العمل وشح المورد رغم الشهادات العلمية العالية، تؤدي إلى تدني مستوى الحياة في البلاد وتدفع بالشباب المسيحي إلى الهجرة.

----

183 - نييورك تايمز: 2009/05/13

184 - دنيز عطاالله حداد، جريدة السفير، العدد الصادر في 2010/4/7

185 - قال قداسة البابا شنودة: "عددهم 12 مليون"، عن جريدة "المصرى اليوم"، الاثنين 27 اكتوبر 2008 العدد 1597 . المعلومات في هذا الشأن متضاربة جدا مابين الأقباط والهيئات الأخرى، وتتراوح مابين 4.5% عن الفاتيكان، و 5.6% عن "أطلس معلومات العالم العربي" الفرنسي، والذي اعتمدت عليه وكالة المخابرات الأميركية، وهذا الرقم تؤكده الإحصائيات الرسمية للحكومة المصرية لعام 2001.

186 - فيما يعرف بالتاريخ بإبادة الأرمن، المذبحة التي أودت بحياة مليون ونصف أرمني وحوالي 150 ألف سرياني وآشوري في جنوب شرقي تركيا.

2 - التشدد الديني. هو أحد أهم الأسباب في الهجرة، ناهيك عن تنامي الحركات الأصولية. والهجرة لأسباب دينية أفقدت الإسلام البرهان على قدرته في التآلف مع غيره، وأبطلت نظرية "السماحة الإسلامية". أحدث مثال على ذلك ما نراه في عراق اليوم من اعتداءات على المسيحيين، وتفجير الكنائس والتهديد والخطف وإشاعة الخوف. **"في الأعوام الثلاثة الأخيرة تم تفجير 14 كنيسة ودُمرت مطرانية الموصل تدميرا كاملا. وقد بات العراقيون يتوجهون إلى دور العبادة وهم خائفون من ألا يعودوا إلى منازلهم".**[187]

3 - تشدد الإجراءات الحكومية. فمن طرف ممارسات المتشددين أو شبح التهديد بممارستها، ومن الطرف الآخر ظلم الأنظمة الواقع على المجتمع برمته، وعلى المسيحيين خاصة، الذين يتعرضون في المجتمع المدني لانعدام العدل والمساواة. هذه الحالة يعيشها اليوم أقباط مصر، ويصفها مؤتمر البطاركة السادس عشر بالكلمات: **"فالأقباط في مصر يتم إقصاؤهم تقليدياً عن شغل الوظائف العليا في مختلف الوزارات ومؤسسات الدولة. ويكاد ينعدم وجود قبطي واحد بين عمداء الكليات ومديري الدواوين والسفراء وكبار الدبلوماسيين والإدارة العليا والقضاء"**، من دون إغفالهم ذكر **"القيود الموضوعة على بناء الكنائس أو ترميمها، أو حتى إقامة مجرد قاعة بسيطة للصلاة، بل مجرد دورة مياه خاصة بكنيسة، إذ يقتضي الأمر 10 سنوات على الأقل للحصول على إذن بترميم كنيسة أو تشييد أخرى جديدة"**.

4 - مشكلة الانتماء. ليس بالإمكان فصل موضوع الهجرة عن موضوع الحضور والانتماء المسيحي ضمن المجتمع العربي الإسلامي، فكلاهما متلازمان ومترابطان. إن الشعور بعدم الانتماء يشتت التفكير ويبدد الإبداع، لأن الذي يشعر بعدم انتمائه إلى المجتمع هو مهمش فيه، سينكمش بنشاطه وإبداعه ويتقوقع داخل أطره القومية والكنسية أو يهجر إلى مكان آخر. لهذا يعيش الكثير من الشباب المسيحي هاجس الهجرة والاغتراب وهم لا زالوا قابعين في أوطانهم ولسان حالهم "هذه البلاد لا تنفع لنا ولا لأولادنا ".

5 - قوميات غير عربية. ولا يمكننا تجاهل وجود قوميات أخرى تسعى إلى إلغاء الحضور العربي المسيحي في بعض المناطق، كالأكراد في الجزيرة الفراتية، وهذا ما يدفع بالكثير من أبناء المسيحية إلى التماس الهجرة.

6 - الحروب. لا شك أن الحروب التي عصفت بالمنطقة خلال الخمسين سنة الأخيرة، ولاسيما الحرب الطائفية في لبنان، كان لها تأثير مباشر على هجرة المسيحيين من أوطانهم، لكن عامل الحرب يبقى خارج الأسباب المؤدية إلى هجرة مسيحية دائمة تلغي عند المسيحي فكر العودة إلى الوطن الأم.

على ضوء هذا، يتجلى واضحاً الخطر الذي تعيشه المسيحية العربية، وهو يرسم علامات استفهام حول مصيرها. نزيف متواصل، هجرات متلاحقة، عمليات اقتلاع، ترحيل قسري. كل هذه تنذر باحتمال اندثار المسيحيين عن خارطة البلدان العربية.

وبعيدا عن التهويل، **"لم يكن مصير مسيحيي الشرق مهدداً مرة كما هو اليوم. إن زوالهم بات احتمالاً متزايد الترجيح، مع الاهتراء المتواصل للوضع. فالهجرة تتحوّل اقتلاعاً كاملاً، وهذا ما يجعلها خطراً محدقاً"**.[188] وإذا ما دام الحال كذلك فإن زوال المسيحية من الشرق هو أمر محتم في المستقبل المنظور. وهجرتهم ستكون، **"ضربة عميقة توجه إلى صميم مستقبل العرب"**.[189] ولا يمكن لعاقل حكيم في الأمة العربية أن يتصور مجتمعا عربيا بلا مسيحية أو مسيحيين.

---

187 - كلمة المعتمد البطريركي للكلدان في روما، المونسنيور فيليب نجم، مؤتمر البطاركة السادس عشر

188 - مؤتمر البطاركة، المرجع السابق

189 - الأمير طلال بن عبد العزيز

الفصل السادس

الطائفية والحركة المسكونية

الطائفية والطوائف في المسيحية العربية

تكاد الطائفية في كنيسة المسيح تكون بقدم الكنيسة نفسها، وقد نشأت في الكنيسة الأولى نتيجة تحزب الجماعات و الأفراد لاتجاهات فكرية متنوعة، أو بسبب انحيازهم إلى نمط من أنماط العبادة استحسنوه وفضلوه على غيره، ثم تطور هذا النمط التعبدي إلى حزب أو طائفة اكتسبت مع الزمن قوة على الصعيد الاجتماعي والقومي والعقائدي.

إن الانتماء الطائفي في بعض جوانبه يظهر نوعا من التنوع الفكري، وأحيانا أخرى الإبداع، لكن هذه حالات نادرة، وتبقى الطائفية رغم ذلك ظاهرة سلبية قد تتحول إلى آفة ينبع منها الجهل والتعصب. فهي التي تضعنا في إطار شكل واحد لا يجوز الخروج عنه، ومن خرج يُحتقر ويُنبذ. وهي، بشهادة التاريخ، أحد الأسباب الأساسية في تناحر المسيحيين ونبذهم لبعضهم البعض.

وقد اكتظ تاريخ الكنيسة بالخلافات المذهبية الطائفية، ولمّا كان من صعب على أي جماعة أن تأسر المسيح لانتساباتها التاريخية وتجعله حكرا عليها، رهن البعض تلاميذ المسيح وجعلوا منهم امتيازاً حصرياً لطائفتهم. وزادوا عمقا في خلافاتهم، فاختلفوا في مقام الرسل، وفي من منهم أقام الآخر على خدمته، وفي من كان الأقرب إلى بولس، ومن من آباء الكنيسة استحق القداسة ومن لم يستحقها؟ وقس على ذلك.

إذا غالت أية طائفة مسيحية في انتمائها لرسول من الرسل وعظّمته وحملت الناس على تعظيمه، أو حصرت فهم الحقيقة ببعض علماءها وقادتها ومعلميها ممن قسم لهم الله نصيب وافر من الحكمة والموهبة الروحية، فإنها بذلك تعلن جهلها لإعلانات الكتاب المقدس حول النقص البشري وتحصر المعرفة الربانية في انجازات أولئك وقدراتهم.

والمشكلة لا تكمن في انتمائنا إلى هذه الطائفة أو تلك، بل أن يُفّرغ هذا الانتماء إيماننا من مضمونه ويحوّل الله من السيد على حياتنا إلى مجرد رمز ميت يتمثل في أحزاب وتكتلات بشرية، إذ ذاك تحل الطائفة محل الله وتصبح هي موضوع فخرنا بينما تفقد كلمة الله تأثيرها في قلوبنا. وهنا ينطبق وصف الدكتور كوستي بندلي للطائفية بأنها مظهر من مظاهر الصنمية، والحالة هذه، **"تتعبّد لذاتها عوض أن تعبد الله، وتستخدمه تعالى عوض أن تخدمه".** [190]

ومن مظاهر الطائفية الخوف من الآخر، والخوف يولد الانغلاق، والانغلاق يولد العداء، والعداء يدين ويخوّن ويكفّر الآخرين وينسب لهم البدعة والضلال. إن الخوف يقودني إلى إزاحة الآخر وإلغائه في سبيل حماية استمراريتي. وهناك الخوف على الرعية ووجودها وكيانها، والخوف على مصالح الطائفة، الذي يغذي روح المنافسة والتسابق إلى النافع والضار.

----

190 - موقف ايماني من الطائفية، كوستي بندلي، ص 39 - 42

والطائفية قد تفرغ الكنائس من هدفها الروحي وتحولها إلى مجرد مؤسسات اجتماعية تعمل على تعظيم اسمها وتنافس بعضها البعض في تسلق السلالم وتقديم الإنجازات وبسط النفوذ والسيطرة. فتصبح إنجازاتها هي الغاية المنشودة وليس مجد الله وخير الإنسان.

لا ننكر أن للمنافسة الطائفية بعض المظاهر الإيجابية النادرة. مثال عليها من القرن التاسع عشر، حيث احتدمت المنافسة بين البروتستانت والكاثوليك، وكانت، كما وصفت، منافسة تميزت بطابعها العملي وبتوخي الغلبة في مجال العلم، وآلت آنذاك إلى إنجازات مضاعفة انصبت في مصلحة النهضة والتجديد. في وصف لواقع ذاك الزمان يذكر مارون عبود قولا ظريفا عن دكتور كرنيليوس فان دايك، بأنه قال: **"أنا ذاهب الآن لأنشئ مدرستين، فسئل كيف يكون هذا؟ قال: في الواقع أنني أنشئ مدرسة واحدة ولكنها في نفس الوقت سوف تنشئ اليسوعية مدرسة أخرى".** [191] مع ذلك لم تكن المنافسة تخلوا من مذمة الآخر، فتحول **"النجاح الذي فاز به أصحاب الكلية الأميركية باعثا للكاثوليك على مزاحمتهم ليصونوا أبناء مللهم من الأضاليل البروتستانتية".** [192]

ما يعيب الطوائف المسيحية أنها تنادي بشعارات المحبة والأخوة ووجوب التحاور ونبذ المذهبية، لكنها في الوقت ذاته تحارب الفكر الآخر، وتمنع أبناءها من الاختلاط بالطوائف الأخرى، ومن الاشتراك في العبادة والخدمة معهم، أو مصاهرتهم، والحجج في ذلك كثرت وتنوعت وقد أوجدوا لكل حجة "سنداً كتابياً".

وظنت كل طائفة بأنها الحاملة للإيمان الأقدس دون غيرها، وأن خارجها لا خلاص للإنسان. لذا استلزم من كل طائفة أن ترد الطائفة الأخرى إلى "الحق". من هنا كان منطلق السبق إلى الأولوية في تمثيل كنيسة المسيح أمام الشعب والحكومات. وكم يسطر لنا التاريخ من فساد للطائفية ومواقف خائنة مخزية. هذا يشي بذاك، وهذه الطائفة تحد من توسع الطائفة الأخرى وتستنكر عليها التبشير بالإنجيل. وبحق، أن المسيحيون أعداء أنفسهم، وهم يعملون أكثر من الغير على إضعاف المسيحية وتفكيك ربط الوحدة وإفشال كل المساعي في هذا الاتجاه، ومن العيب أن يلام الذئب في عدوانه إن يك الراعي عدو الغنم.

علينا أن نعي جيدا، بأن الحساب أمام كرسي المسيح غير متعلق بالانتماء الطائفي، ولا بالموقف العقائدي، ولا بالتقاليد والطقوس الكنسية، وإنما بموقف كل مسيحي من المسيح وبمقدار حبه لله ولأخيه الإنسان. وإن شئنا أن نسمع مدحه "أيها العبد طوباك"، لنطع أمره "سالم أولاً أخاك".

تتوزع الطوائف المسيحية في العالم العربي اليوم على 5 مجموعات كنسية يمثلها مجلس كنائس الشرق الأوسط، وتعدد كالتالي:

- **العائلة الأرثوذكسية (خلقيدونية):** بطريركية الروم الأرثوذكس، في أورشليم وإنطاكية (دمشق) والإسكندرية.

- **العائلة الأرثوذكسية الشرقية (لا خلقيدونية):** بطريركية السريان الأرثوذكس، في إنطاكيا(دمشق) والإسكندرية، وبطريركية الإسكندرية للأقباط الأرثوذكس في القاهرة، والأرمن الأرثوذكس في بيروت.

- **العائلة الكاثوليكية**: بطريركية إنطاكية للموارنة، بكركي- لبنان، وبطريركية بابل للكلدان، بغداد- العراق. بطريركية كيليكيا للأرمن الكاثوليك، بيروت. بطريركية الإسكندرية للأقباط الكاثوليك، القاهرة. بطريركية إنطاكية للسريان الكاثوليك، بيروت. بطريركية إنطاكية للروم الملكيين الكاثوليك، دمشق. بطريركية القدس للاتين.

----

191 - الكتاب المقدس، في التاريخ العربي المعاصر، الدكتور القس ثروت قادس

192 - تاريخ الآداب العربية، لويس شيخو، ج2 ص 130

- **عائلة المشرق الآشورية:** تنقسم إلى جماعة التقويم الجديد برئاسة جاثليق في أمريكا، وجماعة التقويم القديم برئاسة جاثليق في بغداد.

- **العائلة الإنجيلية:** تجمع تحت لوائها في البلدان العربية: الكنيسة اللوثرية، الكنيسة المشيخية، الكنيسة الأسقفية، كنيسة الاتحاد المسيحي، الكنيسة المعمدانية، كنيسة الأخوة، كنيسة الناصري، وغيرها.

الحركة المسكونية وكنيسة العرب

ولمّا كان إزاحة الطائفية من الأمور الصعبة، أتت الحركة المسكونية لتخفف من وطأتها، وقد تبنتها المسيحية العربية في العصر الحديث لتفعيل الأنشطة التثقيفية والتنموية والحوارية بين مختلف الطوائف المسيحية.

إنّ الكلام عن الحركة المسكونية ونشأتها وتاريخها متشعب وطويل. لقد بدأت الحركة كتعاون تبشيري مشترك بين الطوائف الإنجيلية في بداية القرن التاسع عشر، وكان من ثماره انبثاق جمعية الكتاب المقدس. ثم تطور الفكر المسكوني في القرن العشرين إلى حوارات وتعاون ما بين الطّوائف الإنجيلية والأرثوذكسية والكاثوليكية على المستوى الدولي.

المبدأ العام هو القبول ببعض المعطيات أولها، أن المسيح أسس كنيسة واحدة مقدسة جامعة وهو سيدها، غير أن القائمين على رعاية الكنيسة لم يكونوا أمناء. وأن جميع الكنائس اشتركت في التقسيم وهي تتحمل مسئوليتها عن ذلك، وهي مدعوة إلى مراجعة الذات بصدق وتواضع أمام الله، الذي أرسل ابنه ليجمع أبناء الله المشتتين.
أما الهدف، فهو الانتقال من الطائفية بمفهومها الانغلاقي والإلغائي للآخر، إلى سعي الجماعة للعيش في حضرة الله والتمتع بنهضة روحية مسيحية. والنهضة من الضروريات، التي لن تكون فعالة، بحسب تعبير البعض، إلا في وحدة الصف المسيحي، والوحدة لا تعني تخليات أو تنازلات عقائدية بقدر ما هي البحث عن نقاط تجمع بين الفرق المسيحية على مبدأ "من لا يجمع فهو يفرّق".

تبدو مبادئ بديهية، لكن هنالك كنائس مشرقية ترفضها وتأبى القبول بمبدأ الوحدة القويم على حساب المعتقد القديم. وهنالك خطر في أن تتحول الحركة المسكونية مع الزمن إلى مؤسسة ميتة خالية من الرسالة الإنجيلية، فتغرق في بحر العمل الاجتماعي وخدمة الفلكلور.

إنّ المسيحية في الشرق تعيش واقعاً متشابكاً معقداً من حيث الانتماء القومي، وهذا ما يزيد الوحدة صعوبة. فبعد مضي أكثر من 1400 سنة من العيش ضمن حدود وثقافة العالم العربي، لا تزال كنائس الشرق لا يجمعها انتماء قومي أو ثقافي واحد. والحوار بين الطوائف هو بحد ذاته خطوة إيجابية، لكن المشكلة الكبرى تكمن في تعريف الوحدة المسيحية، ووضع أساس تبنى عليه الوحدة. وأسوء الأسس تلك التي تقتصر على التوحيد الفلكلوري، وفي الملابس الكهنوتية والألحان الكنسية. فلينجي الله كنيسته من هكذا أفكار توحيدية.

انطلاقا من هذا الوضع المتشابك جاءت محاولات عديدة لضم الكنائس تحت تسمية واحدة يحفظ فيها كيانهم وتعطى لهم هوية تميزهم. منها تسمية "كنيسة العرب"، التي اقترحها الفرنسي الأب جان كوربون،[193] على خلفية أن التسمية تساعد في توضيح بعض الالتباسات وفي الخروج من مآزق تضعنا فيها التسميات الكنسية السارية في المنطقة، التي تساهم في تغذية الالتباس والغموض كونها لا تعبر بدقة، لا عن هوية الكنيسة ولا عن هوية الشرق. مال البعض لهذه التسمية، بينما رفضها آخرون مع تفضيل البقاء في أطرهم الخاصة.

----

193 - في تمهيد على كتابه "كنيسة العرب"، يقول كوربون:" في كلامنا عن كنيسة العرب، لا نقصد الاشارة الى "الكنيسة العربية" بالمعنى الحصري، او الكنيسة الانطاكية أو الارثوذكسية أو الكاثوليكية او القبطية بالمعنى الضيق المتداول. المقصود هو الكنيسة الحية في هذه المنطقة، تلك التي تتألف من مجمل المسيحيين، والتي تشمل هويتها الكنائس الفردية ومنها تتألف". (عن البروفسور جوزف أبو نهرا، جريدة النهار، الاحد 10 تشرين الأول 2004)

يقول الدكتور أنطوان فليفل: **"إن أرادت الكنائس الشرقية الحياة، فعليها أن تخرج من عوالمها الخاصة، القبطية والأشورية والسريانية والبيزنطية والمارونية والإنجيلية... أن تحمل إرثها وأن تعيش رسالتها ككنيسة للعرب... فالمطلوب هو الإتّحاد سوية بالمسيح ولا الاتحاد بالكنيسة الرومانية الكاثوليكية والانصياع لعصمة البابا. والمطلوب هو الانضمام سوية إلى جسد المسيح السري ولا الدخول إلى شراكات كنسية أرثوذكسية مبنية على تعابير إيمانية صاغها البشر".** [194]

****

خلاصة:

لقد اجتازت كنيسة المسيح في الشرق مراحل تاريخية متنوعة غلبت فيها التحولات السياسية والدينية العميقة وتركت فيها مبلغ الأثر. فكُتب لها أن تعرف بطش العرب وتلمس فساد المماليك وتختبر قسوة الأتراك ووحشية الصليبيين وقمع العثمانيين. كانت ككرة تتقاذفها الأيادي في ظل الدولة الإسلامية، وكلما اضطرب أمر هذه الدولة زادت القيود الموضوعة على أبناءها، تارة من منطلق تشريعات مزاجية خاصة، وتارة غيرها على أساس سند إسلامي صريح. فلم ينعم مسيحيي الشرق يوما براحة في أوطانهم، وكانوا غالبا ضحايا الظلم والجهل، والجهل آفة خطيرة ينبع منه الغلو والتعصب والاضطهاد.

اليوم تواجه المسيحية العربية خطر الاقتلاع، وهي تكافح من أجل البقاء في أحواض إقامتها مع التخوف من نهايتين: القبول بمواطنة من الدرجة الثانية، أو الاستئصال. هذا الخوف قاد ويقود إلى هجرة جماعية وإخلاء كامل لبعض المناطق المسيحية في الشرق.

والحل، أن يدرك العربي المسلم، أن لا عروبة بدون المسيحيين العرب، فهم عضو في جسدها لا يمكن تجاهله. كما وعلى المسيحي أن يعي، أن لا مسيحية شرقية حية بدون عروبة. فإن لم تكن العروبة ولغتها هي ما يجمعنا كمسيحيين من مصر وفلسطين وسوريا ولبنان والعراق وكل أماكن تواجدنا في البلدان العربية فأية لغة ستجمعنا وما هي الثقافة التي تضمنا، وهل من سبيل إلى وحدة مسيحية في أوطان عربية بمعزل عن انتماء ثقافي للعروبة؟

---

194 - الدكتور أنطوان فليفل، جريدة النهار 30.11.200

الباب الرابع

المسيحيون العرب

- دورهم الحضاري وتراثهم الأدبي والديني -

في هذا الباب:

من المتعارف عليه، أن المراحل التاريخية للشرق، منذ الفتوحات الإسلامية فصاعدا، تنقسم إلى ثلاثة:

أ - العصر الذهبي، ويمتد من العام 750 وحتى 1350م.

ب - عصر الانحطاط، ويقع مابين العام 1350 والعام 1800م.

ت - عصر النهضة الحديثة، ويبدأ من العام 1800 فصاعدا.

أما اهتمامنا فينصب في العصرين الأول والأخير، ففيهما برز بشكل خاص دور المسيحية والمسيحيين ومدى مساهمتهم في النهضة الأدبية والعلمية التي تمتع بها العالم العربي.

وتوضيحا للصورة أقدم مجموعة ممن عرفوا بعلمهم الغزير وساهموا بنشاط محمود في نشر العلوم وكانوا الجسر الذي عبرت عليه المعارف الإنسانية من الشرق والغرب إلى داخل العالم العربي، بغض النظر عن مذاهب من يأتي ذكرهم، ولا مدى عمق المسيحية في نفوسهم أو تأثيرها على حياتهم وسلوكهم.

في هذا الباب أيضا كلام في التراث العربي المسيحي. والتراث هو ما آل ألينا من أسلافنا المسيحيين، من عرب أقحاح وعرب مستعربين، وما ورثناه عنهم من حضارة إنسانية في شتى المجالات. وإن كان المسيحيون العرب الأقحاح قبل الإسلام لم يورثونا شيئا في مجال العلوم، إلا أنهم طيلة قرون عديدة مثلوا واقعا اجتماعيا وثقافيا وروحيا أثرى العروبة ووشحها بكثير من الحس المسيحي.

الفصل الأول

المسيحيون والإنجازات المنسية

للمسيحيين في مصر والشام والعراق وبلاد النهرين تاريخ عريق في الإنتاج العلمي والفكري والأدبي، لكن مما يؤسف له، أن الكثير من تاريخ العرب المدون ظل لقرون طويلة حبيس الدين الإسلامي، و طمس منه كل ما يتعارض مع مصالح الفقهاء، لاسيما الحقائق المتعلقة بالمسيحية ودور مشايعيها في بناء الحضارة العربية.

وإنه لمن الغريب الأليم أن يجد الباحث أكواما مكدسة من الكتب والمجلدات اكتظت بالتحامل والتسفيه والهجوم على عقائد المسيحيين، لكنه لا يجد إلا القليل مما يدل على التراث العربي المسيحي، رغم كون هذا التراث شكل حيزا كبيرا ضمن تاريخ عربي لا يقل عن سبعة عشر قرنا، تمتد من القرن الرابع ميلادي إلى اليوم.

ولنا من التذكير بتراثنا و دور أجدادنا أغراض هي:

أ - إبراز دور المسيحيين في بناء الحضارة العربية، وإبطال مقولة "أن المسيحية سلعة مستوردة وأن المسيحيون ضيوف على الأوطان العربية". فعلى الرغم من أن مسيحيو المشرق، منذ دخول الإسلام بلادهم إلى الآن، لم يكونوا أسياداً على أوطانهم، فإنّ التاريخ يبرزهم في طليعة رواد الأدب والعلم. ولسنا نبالغ إن قلنا، أن أسس ومقومات الفكر العربي القومي الحديث شيدت على أيدي مفكرين مسيحيين.

ب - إبطال مقولة "أن الحضارة العربية والحضارة الإسلامية واحد". فالحضارة هي مدى ما وصلت إليه الشعوب في نواحي نشاطها الفكري والعقلي من علوم ومعارف وفنون وعمران وما إلى ذلك. وهذه لم تكن للمسلمين، لكنهم اكتسبوها من الشعوب المتحضرة بجوارهم. وليس بخافٍ على أهل العلم، أن العرب المسلمين لم يصطحبوا من الجزيرة شيئا من العلم أو الفن أو التقليد الفكري أو التراث الثقافي، ولا أتوا للبلدان المتحضرة بمهن وصناعات يغنون بها حضارة الشعوب. [195] وعليه لا يجوز أن الحضارة العربية تكون حكرا على الإسلام.

يقول ابن خلدون: **"ليس في العرب حملة علم، لا في العلوم الشرعية ولا في العلوم العقلية".**[196] وقد كان من الغرابة في تلك الأزمنة أن يُسمع بعالم من المسلمين ضمن المجتمع العربي. نلمس هذه الحقيقة في قول ساخر للجاحظ في كتابه "البخلاء"، حيث يشير إلى واقع زمانه في قصة أسد بن جاني، وهي غالبا شخصية وهمية. فيقول: **"قال (أسد بن جاني): أما واحدة فإني عندهم مسلم وقد اعتقد القوم قبل أن أتطيب لا بل قبل أن أخلق أن المسلمين لا يفلحون في الطب! وإسمي أسد وكان ينبغي أن يكون اسمي صليباً ومرايل ويوحنا".** [197]

ت - تكريم آباءنا والتمثل بمن أظهروا إيمانا منقطع النظير وحبا للعلوم لم يعيا أو يكل وسط كل ما عانوه من قتل واضطهاد وتهجير. فكانوا الأمثل في تثقيف المحتل وإيصال الأدب والعلم إليه، مدفوعين بتكليف من المسيح، بأن يكونوا ملحا للأرض ونورا للعالم.

----

195 - تاريخ التمدن الإسلامي، جرجي زيدان، ج 4 ص 70 – 71، أيضا: الجامع في تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري، ص 504

196 - مقدمة ابن خلدون ج1 فصل 43

197 - الجاحظ – البخلاء - قصة أسد بن جاني ص 64

إن النـزوع إلى الثقافة والأدب قديم في كنيسة المشرق بقدم المسيحية. وقد ظل المسيحيين، رغم معاناتهم، محبين للحرية وتوّاقين للتعبير عن قناعاتهم وأفكارهم وآرائهم في كل المجالات، اللاهوتية والفكرية والأدبية. لم تخنق صعوبة العيش حبهم للمعرفة، ولم يردعهم في ذلك وجودهم ضمن مجتمعات متشددة ومنغلقة تسودها مرجعية دينية مطاطية تتكيف بحسب أمزجة الحكام، ولا العيش في ظل أنظمة مستبدة كالت لهم من العذاب أشكالاً وألوناً، وتفنن حكامها في ابتداع طرق وأساليب لإذلالهم. بل على العكس من ذلك، لقد تفوقوا على كثيرين من أقرانهم، وكانوا السباقين في ميادين الفكر والآداب، وإليهم تنسب أعمال أدبية قيمة ومهمة، ولمدارسهم الشهيرة شأن خطير لا يستهان به في نهضة الفكر العربي قديماً وحديثاً.

الفصل الثاني

المسيحيون وأثرهم في لغة الضاد

"للعلم تاريخان، احدهما قبل اختراع الكتابة، والآخر بعدها"(جرجي زيدان).

لا حضارة بدون لغة، فالغة هي المحور الذي يدور حوله الوعي البشري، وهي وسيلة التعبير، التي بدونها ينقطع الإفصاح عن الفكر، كما ولا حياة دائمة في لغة لا تكتب، لأن ما لا يكتب يموت ويضمحل.

ليس من يعلم يقينا كيف ومتى نشأت اللغة العربية، ولا يوجد ما يرصد بالتحديد تطورها إلى ما هي عليه اليوم. في هذا الشأن يقول بروكلمان: **"يبدوا أن أوائل علم اللغة العربية ستبقى دائما محوطة بالغموض والظلام، لأنه لا يكاد ينتظر أن يكشف النقاب بعد عن مصادر جديدة تعين على بحثها ومعرفتها"**. [198]

لكن من المسلمات عند أهل العلم والاختصاص أن اللغة العربية استمدت جذورها من النبطية، شقيقة السريانية. ويذهب بروكلمان إلى أن الخليل بن أحمد مؤسس النحو العربي، هو الذي ابتكر شكل الحروف، وعلامات القراءة، استناداً على نماذج سريانية.[199]

كانت الكتابة في الجزيرة العربية، قبل الإسلام وعند ظهوره، شائعة في بعض المناطق دون غيرها. فكان أهل اليمن يعرفون الكتابة بالخط المسند، وفي مناطق أخرى من الجزيرة عرفت الكتابة النبطية التي منها اشتق الخط العربي. ومع الزمن مات المسند وعاش الخط المتطور عن النبطي. ذلك أن النصارى العرب عملوا على إحياء الخط النبطي باستخدامه في كنائس العرب في العراق ودومة الجندل وبلاد الشام. فهو الخط الذي نشره المسيحيون وكُتب به القرآن وصار "قلم المسلمين".[200]

وقد نشأت عند العرب نظريتان في نشأة الخط العربي ومكان تطوره. قسم قال أنه نشأ في الأنبار والحيرة، أهم معاقل المسيحية في العراق، ثم انتقل إلى مكة والحجاز. وقسم قال بنشأته وتطوره في الحجاز. غير أن النظرية الأولى هي الأثبت عند المؤرخين وأهل العلم. ففي قول لعباس بن هشام، أن ثلاثة من طيء بمدينة بقة موطن المناذرة، الواقعة بين هيت والأنبار في العراق، وضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية. فتعلمه منهم قوم من الأنفار ثم تعلمه أهل الحيرة من أهل الأنبار. وكان بشر بن عبد الملك أخو أكيدر صاحب دومة ألجندل **"يأتي الحيرة فيقيم بها لحين وكان نصرانيا. فتعلم بشر الخط العربي من أهل الحيرة"**.[201]

ويقول جواد علي: **"كان للتبشير يد في نقل هذا الخط إلى الحجاز ... وقد كان المبشرون من أهل العراق نشطون في التبشير في جزيرة العرب، فلا يستبعد إن يكون من بينهم مبشرون حيريون نقلوا الكتابة إلى دومة الجندل والحجاز ومواضع أخرى من جزيرة العرب ... فأهل الأنبار، والحيرة، وعين الشمس، ودومة الجندل، وبلاد الشام، كانوا من النصارى، فلا استبعد احتمال استعمال رجال الدين للقلم السرياني المتأخر، الذي كوّن القلم النبطي في كتابة العربية،**

----

198 - تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ج 2 ص 123

199 - بروكلمان، ج 2 ص 131 - 132

200 - المفصل في تاريخ العرب، جواد علي، فصل 82 و 120

201 - فتوح البلدان، البلاذري، مجلد 2، عمرو الناقد . قال به أيضا ابن نديم في الفهرست ص 5 -7

لحاجتهم إلى الكتابة في تعليم أولاد النصارى الكتابة، وتثقيفهم ثقافة دينية، فكانوا يعلمونها في المدارس الملحقة بالكنائس". [202]

أي كانت النظرية المأخوذ بها، فهي تشير إلى الأثر المسيحي الهام في تطوير ونشر الكتابة العربية التي تولد منها القلم العربي. وفي إشارة إلى تأثير الخط على النهضة العربية يقول جرجي زيدان: **"على أن بعض الذين رحلوا منهم إلى العراق أو الشام قبل الإسلام تخلقوا بأخلاق الحضر واقتبسوا الكتابة منهم على سبيل الاستعارة، فعادوا وبعضهم يكتب العربية بالحرف النبطي أو العبراني أو السرياني...ومعنى ذلك أن السريان في العراق كانوا يكتبون ببضعة أقلام من الخط السرياني في جملتها قلم يسمونه "السطرنجي" كانوا يكتبون به أسفار الكتاب المقدس. فاقتبسه العرب في القرن الأول قبل الإسلام، وكان من أسباب تلك النهضة عندهم".** [203]

للأسف لم يصل إلينا من العصر السابق للإسلام أية مخطوطات إنجيلية أو كنسية باللغة العربية، لكن أقدم المنقوشات العربية وجدت في أبواب كنائس العرب وأديرتهم قبل الإسلام. في دير هند الكبرى في الحيرة وما حولها وفي خرائب زبد قرب حلب، ونُقش حرَّان.[204] وفيما سلف جاء ذكر بعضها، والتي منها نستدل عن الكتابة التي تداولها المسيحيون العرب وكانوا هم معلموها وناقلوها، وبها أبلغوا بشرى الإنجيل لأبناء جنسهم.

إن اللغة العربية والتراث العربي بآدابه وعلمه الغزير هما خاصة المسيحي قبل غيره، وليس لأحد دور أفضل مما للمسيحي في إنهاض هذا التراث وهذه الحضارة. فمنذ الفتح الإسلامي لبلاد الشام والعراق ومصر في القرن السابع الميلادي، تعامل المسيحيون الشرقيون مع اللغة العربية باعتبارها الوعاء الثقافي لهم، وأصبحت مع الزمن هي اللغة الشعبية المستخدمة في العبادة عند معظمهم. وإن كان آباءنا قبل الإسلام قد أفصحوا عن مسيحيتهم بلغات عدة، يونانية وسريانية وقبطية، إلا أنه بهيمنة العرب على الشرق لم يتوانوا في استخدام اللغة العربية وتطويرها وتسخيرها لشرح معاني البشارة المسيحية. لذا نرى اللغة العربية قد ارتبطت ارتباطا وثيقا مباشرا بنشاطهم **"فأغنوها أيما إغناء، فحازوا قصب السبق في تطويرها وإنمائها".** [205]

----

202 - المفصل في تاريخ العرب، جواد علي، فصل 121

203 - تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، ج 1 ص 200

204 - المسيحية العربية، تاريخها وتراثها، الأب ميشال نجم ص 121 ، و مدخل إلى التراث العربي المسيحي، الأب سمير خليل اليسوعي، مجلة المسرة 1981 مجلد 67 ص 169 – 170 اكتشفت كتابات عربية قديمة ذكرها ياقوت الحموي وغيره في تاريخهم. راجع الباب الأول والفصل الخامس، أيضا معجم البلدان، ياقوت الحموي

205 - ميشال نجم، السابق، ص 8

الفصل الثالث

المسيحيون وأثرهم في الشعر العربي

أثرى الشعراء المسيحيين آداب ولغة العرب بتعبيرات لم يسبقهم إليها أحد، ومنهم من لمع وأضحى بطلا لروايات أدبية اشتهرت في المشرق كافة. وقد تركت قصائد بعضهم أثراً بالغاً في التاريخ العربي، إذ حملت إشارات إلى حوادث ونزاعات سياسية وحروب قبلية. وإننا هنا نذكر البعض منهم: [206]

1 - امرؤ القيس بن جُحر بن الحارث بن عمرو المقصور، من اشهر شعراء المسيحية قبل الإسلام. قيل: **"أن المهلل خاله لقنه فن الشعر فبرز فيه إلى أن تقدم على سائر شعراء وقته... وفي شعره رقة اللفظ وجودة السبك وبلاغة المعنى. سبق الشعراء إلى أشياء ابتدعها واستحسنها العرب واتبعه عليها الشعراء".** [207] اشتهر بمعلقته:

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ بسقطِ اللوى بين الدخولِ فحوملِ
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوبٍ وشمألِ

2 - عدي بن زيد العبادي، أول من كتب بالعربية في ديوان كسرى ملك الفرس. **"المقدم على جميع شعراء الحيرة ... لسان هذه المدينة... كان نصرانياً هو وأهله".** [208] يقول الجاحظ: **"سأنشدك لعدي بن زيد، وكان نصرانياً ديانا، وتَرجماناً، وصاحب كتب، وكان من دُهاة أهل ذلك الدهر"**، ثم يذكر له أبياتا فيها مختصر خلق الله لآدم، فيقول:

قضى لستة أيّام خليقته وكان آخرها أن صوّر الرجلا
دعاه آدم صوتاً فاستجاب له بنفخة الروح في الجسم الذي جبلا
ثُمة أورثهُ الفردوسَ يعمرها وزوجه صنعة من ضلعه جعلا
لم ينههُ رَبهُ عن غير واحدة من شجرٍ طيب: أن شَم أو أكلا [209]

3 - زُهير بن أبي سُلْمَى المزني. وهو احد الثلاثة المقدمين على سائر الشعراء، وهم امرؤ القيس وزهير والنابغة. وقد اشتهر زهير بأنه بعيد عن السخف ولا يمدح أحداً إلا بما كان فيه.

4 - النابغة الذُّبياني، واسمهُ زياد بن معاوية، وهو من الطبقة الأولى المقدمين على سائر الشعراء. قيل فيه: **"أشعر شعراء قومه وأشعر الناس وأشعر العرب".**

5 - الحارث بن عوف بن ضب. حفل شعره بمفردات صعبة زادت من غنى معاجم اللغة، كقوله:

كالأسودِ الحَبَشيِّ الحَمْشِ يتبعهُ سودٌ طَماطمُ في آذانها النطَفُ
هاب هبلٌ مُدلّ يعملٌ هَزِجٌ طَفطافُهُ ذو عِفاءٍ نِقنقٌ جنفُ

----

206 - المراجع المعتمدة لهذا الفصل هي: 1 - الأب لويس شيخو، شعراء النصرانية 2 - المفصل في تاريخ العرب، جواد علي 3 - جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية 4 - الجامع في تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري

207 - شعراء النصرانية، الأب لويس شيخو، ج1 ص 8و 35

208 - المفصل في تاريخ العرب، جواد علي، فصل 161

209 - كتاب الحيوان، الجاحظ، في أمر الحية

6 - عبد يَغوث بن صلاءة بن الحارث بن وقّاص. أسر في معركة مع بني تميم، ولمّا هموا بقتله قال قصيدة فيها يطلب إطلاق سراحه معللا أنه لم يقتل فارسهم النعمان بن جساس:

أقول وقد شدوا لساني بنسعة أمعشر تميم، أطلقوا عن لسانيا
أمعشر تيم ، قد ملكتم فأسجحوا فإن أخاكم لم يكن من بوائيا
فإن تقتلوني تقتلوني سيدا وإن تطلقوني تحربوني بماليا

في صاحب القصيدة يقول الجاحظ: **"وليس في الأرض أعجب من طرفة بن العبد وعبد يغوث ، وذلك أنا إذا قسنا جودة أشعارهما في وقت إحاطة الموت بهما لم تكن دون سائر أشعارهما في حال الأمن والرفاهية".**

7 - دُريد بن الصمة، واسمه معاوية بن الحارث. فارس شجاع قال عنه أبو عبيدة: **"كان دريد بن الصمة سيد بني جشم وفارسهم وقائدهم ... وأدرك الإسلام فلم يسلم".**

8 - أعشى قَيس المعروف بالأعشى الأكبر. هو ميمون بن جنْدل بن شراحيل، من نصارى اليمامة. اشتهر بمعلقته "ودّع هريرةَ إن الركبَ مرتحلُ". قالوا: **"أشعر الشعراء أربعة: زهير إذا طرب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا غضب، وعنترة إذا كلب".** [210]

9 - عمرو بن قميئَة بن ذريح. سيرته فيها الكثير من الشبه بقصة يوسف. مات أبوه وتركه صغيراً فاحتضنه عمه بن سعد وكان يحبه حباً شديداً. ولمّا راودته يوما امرأة عمه عن نفسه أبى وخرج من عندها، ثم هرب إلى الحيرة خوفا على حياته، إذ كانت قد وشت به إلى زوجها. وبعد زمن طويل غفر عمروا لمضطهديه ظلمهم.

10 - حاتم الطائي بن عبد الله بن سعد بن أمرؤ القيس. وصله يوما قول المتلمس:

قليل المال يصلحه فيبقى ولا يبقى الكثير مع الفساد
وحفظ المال خير من فناء وعسف في البلاد بغير زاد

رد حاتم بالقول: " قطع الله لسانه، حمل الناس على البخل فهلا قال:

فلا الجود يفني المال قبل ذهابه ولا البخل في مال الشحيح يزيدُ
فلا تلتمس مالاً بعيش مُقتر لكل غد رزق يعود جديدُ
ألم ترَ أن الرزق غاد ورائح وأن الذي أعطاك سوف يعيدُ [211]

11- الحسن بن وهب بن سعيد، "كاتب شاعر مترسل فصيح أديب ... وهو عريق في الكتابة، ولأولاده نجابة مشهورة تستغني عن وصف ذلك، وكانوا يقولون إنهم من بني الحارث بن كعب، وأصلهم نصارى". [212]

قال فيه البحتري وهو يجتاز منزله بعد وفاته:

أناة أيها الفلك المدار أنهب ما تطرق أم جبار

210- رجال المعلقات العشر- مصطفى الغلاييني، ص 14

211 - مفصل في تاريخ العرب، جواد علي، فصل 166

212 - الأغاني، لأبو فرج الأصفهاني، ج 23 ص 2581

12 - حنظلة بن أبي عفراء الطائي، بن النعمان بن الحارث. يقال، لمّا ضاق حاله يوما ذهب إلى الحيرة ليطلب عون المنذر. فصدف وصوله يوم بؤس الملك. ويروي ياقوت الحموي: **" قال له المنذر: لابد من قتلك فسل حاجتك تُقض لك قبل موتك فقال: تؤجلني سنة أرجع فيها إلى أهلي فأحكم فيهم بما أريد ثم أسير إليك فينفذ في أمرك".** فقام في المجلس رجل يقال له شريك بن عمرو وكفل حنظلة. ولمّا قرب اليوم وحنظلة لم يزل غائبا قال المنذر لشريك: **"ما أراك إلا هالكا غداً فداءً لحنظلة".** فقال شريك، وقوله صار مثلا يضرب: **"فإن يكُ صدر هذا اليوم ولى فإنَّ غداً لناظره قريبٌ".**[213] لكن قبل أن يُقتل شريك قدم حنظلة، وإذ رأى المنذر ذلك عجب من ولائه، فأطلقهما.

13 - البرّاق، أبو النصر، وهو تغلبي من قرابة المهلهل. كان في صغره يتبع رعاة الإبل ويحلب اللبن ويأتي به إلى راهب حول المراعي فيتعلّم منه تلاوة الإنجيل. أحب البراق ليلى ابنة عمه، وكانت هي الأخرى شاعرة مسيحية تامة الحسن كثيرة الأدب. أسرها ابن لكسرى ملك العجم ونقلها إلى فارس، فبقيت هناك أسيرة متعففة لا ترضى بزواج إلى أن انتزعها البرّاق من يد غاصبيها واستحق أن يتزوج بها. ولهذا سميت "ليلى العفيفة".

14 - عنترة بن شداد العبسي، الذي اشتهر بشجاعته وحبه لابنة عمه عبلة. كانت العرب كثيراً ما تعيره بالسواد لكنه كان يرد بالشعر الرائع:

لئن أكُ اسوداً فالمسك لوني   وما لسواد جلدي من دواءِ
ولكن تبعد الفحشاء عني   كبُعد الأرض من جوّ السماءِ

15 - قس بن ساعدة بن عمرو بن عديّ، خطيب العرب وشاعرها وحليمها. أول من قال في كلامه: "أما بعد"، وأول من قال: "البيّنة على المدّعي"، و"اليمين على من أنكر" و"من فلان إلى فلان". أورد له ابن كثير الأبيات:

يا ناعي الموت والملحود في جدث   عليهم من بقايا قولهم خرق
دعهم فإن لهم يوما يصاح بهم   فهم إذا انتبهوا من نومهم أرقوا
حتى يعودوا بحال غير حالهم   خلقا جديدا كما من قبله خلقوا
منهم عراه ومنهم في ثيابهم   منها الجديد ومنها المنهج الخلق

16 - قيس بن زُهير بن جذيمة بن رواحة العبسي. يُضرب به المثل، فيُقال: "أدهى من قيس". وكان يتبادل الشعر مع النابغة الذُبياني.

17 - سلامة بن جَنْدَل بن عمرو. كان من فرسان تميم في أيام عمرو بن هند والنعمان أبي قابوس.

18 - اَوس بن حَجَر بن مالك، شاعر تميم من شعراء الجاهلية وفحولها.

19 - المثقّب العبديّ، العائذ بن محصن بن ثعلبة. من بني قيس بن ربيعة في شرق الجزيرة العربية. من أقواله:

لَلموتُ خيرٌ للفتى من حياتِه   إذا لم يَثِبْ للأمرِ إلاّ بقائدِ
فعالجْ جسيماتِ الأمورِ، ولا تكنْ   هبيتَ الفؤادِ همهُ للوسائدِ

20 - أسد بن ناعسة التنوخي، من شعراء تنوخ وكان معاصراً لعنترة.

---

213 - معجم البلدان، ياقوت الحموي، ج3 ص 28، شعراء النصرانية، لويس شيخو، ج 1ص 90

21 - طَرَفة، وهو أبو عمرو طرفة بن العبد بن سفيان. من مشاهير الشعراء يًعد بينهم من ذوي الطبقة الأولى، وله معلّقة معروفة باسمه. قُتل وهو مراهقاً صغير السن.

22 - المرقّش الأكبر، أو عمرو بن سعد بن مالك بن ضبيعة. كان أديباً شاعراً تعلم الكتابة.

23 - المتلمس، واسمه جرير بن عبد المسيح بن عبد الله. من فحول شعراء أهل البحرين.

24 - إياس بن قبيصة بن أبي عفراء بن النعمان، وهو ابن أخي حنظلة.

25 - كُليب وائل بن ربيعة، وأخوه عدي المعروف بالمهلهل.

26 - عدي بن ربيعة الملقب "المهلهل". من شعراء الطبقة الأولى، وهو اخو كُليب بن ربيعة التغلبي و خال امرئ القيس بن حجر، وأبو ليلى أم عمرو بن كلثوم. قال الأصمعي: **"إنه أول من يروى له كلمة تبلغ ثلاثين بيتا من الشعر".** [214] ولعلها الكلمة التي قام بها على قبر أخيه كليب الذي قُتل بسبب ناقة البسوس، وتقول:

أهاج قذاة عيني الاذكار هدوءا فالدموع لها انحدارِ
وظل الليل مشتملا علينا كأن الليل ليس له نهارِ

27 - عمرو بن كلثوم. شاعر الطبقة الأولى وصاحب المعلقة:

ألا هُبّي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا
مشعشعة كان الحصَّ فيها إذا ما الماء خالطها سخينا

28 - زهير بن جناب بن هبل الكلبي من بني كنانة بن بكر، هو خطيب قبيلة قضاعة وسيدها وشاعرها.

29 - أُميّة بن أبي الصلْت. كان من رؤساء ثقيف وفصحائهم المشهورين، وقد لبس المسوح تعبداً.

---

214 - المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، 49

الفصل الرابع

المسيحيون ومدارسهم العريقة

لعل أهم العوامل التي أهلت المسيحيين للمساهمة في نهضات العرب قديما وحديثا كان شغفهم بالمعرفة والعلم. ويعود الفضل الأول في ترقية الفكر عندهم إلى مدارسهم التي كانت ملحقة بالكنائس والأديرة، إذ أتاحت لهم الفرص للاتصال بالمعارف الخارجية. فكانوا من أدرى الناس بسائر العلوم والآداب.

ذاع صيت المدارس المسيحية الكبيرة، في الإسكندرية والرها ونصيبين والمدائن وجنديسابور وحرّان والرقة وأنطاكيا وآمد وقنسرين، ومنها خرج جملة من الفلاسفة والعلماء واللاهوتيين غيروا واجهة الشرق. لا يوجد علم من علوم ذاك الزمان لم تحتويه تلك المدرس، من الفلسفة إلى الطب والتشريح والرياضيات والفيزياء والكيمياء والنحو والبيان والموسيقى والفلك. فكان لها دورا هاما في صياغة حضارة المشرق، بل أن الغرب نفسه قد تمتع بعطائهم، لأن ما وصل إليه من علوم شرقية لا يندرج ضمن الحضارة الإسلامية، وإنما هو جزءٌ من حضارة عربية كان للمسيحيين الفضل الأكبر في إنشاءها، وهي عصارة مدارسهم العريقة.

ظلت هذه المدارس مزدهرة ومثمرة بعد مجيء الإسلام، وراحت مؤلفات عباقرتها وعصارة فكرهم تغذي الأجيال اللاحقة طويلاً. فكان لها إسهام كبير في الحركة الفكرية والأدبية إلى ما بعد القرن الرابع عشر. يقول سوريال عطية في تأثير مدرسة نصيبين: **"وقد تلقى بعض الدارسين العرب علومهم على أيدي بعض خريجي مدرسة نصيبين هذه، ولما كان العرب هم الذين نقلوا التراث اليوناني القديم إلى الغرب الأوربي في أواخر العصور الوسطى، فإن هذا العطاء العربي يتضمن أيضا فضل مدرسة نصيبين على الثقافة الأوربية ودوائر أوربا العلمية المختلفة".** [215]

إن المقولة "علماء العرب المسلمين غيروا وجه العالم"، علاوة على ما تحمله من مبالغة وتعظيم، هي مقولة تظهر الوجه الواحد للحق وتخفي وجهه الآخر. والحق، أن شخصيات كالفارابي وابن سينا والرازي لم تكن لتلمع لولا الفكر الذي صنعها وهذبها، **"فأساتذة الفارابي مثلا ثلاثة: يوحنا بن حيلان في حرّان وإبراهيم المروى في مرو، وأبو بشر متى بن يونس في بغداد، وكلهم من النصارى".** [216] ولكن يحلو للتاريخ العربي أن يبرز المسلمين ويخفي صنّاعهم.

كان العلماء المسيحيين الذين استنيروا ببشارة الإنجيل وتثقفوا بعلوم الدنيا، لا يكتفون بالكرازة على مسامع العامة، بل يبذلون كل قواهم في تثقيف الشعوب وتهذيبهم في مسائل الفلسفة والمنطق، وكان جلهم آشوريين وسريان، هضموا ما وقع بهم من مظالم وأعطوا المجتمع بسخاء. قال فيهم جرجي زيدان: **"والسريان أهل ذكاء ونشاط فكانوا كلما أطمأنت خواطرهم من مظالم الحكام وتشويش الفاتحين انصرفوا إلى الانشغال بالعلم، فأنشأوا المدارس للاهوت والفلسفة واللغة ونقلوا علوم اليونان إلى لسانهم وشرحوا بعضها ولخصوا بعضها... كان للسريان فيما بين النهرين نحو خمسين مدرسة تعلم فيها العلوم بالسريانية واليونانية".** [217] ويقول بروكلمان: **"كان السريان الآراميون هم الذين استأثروا في الغالب بتعهد علوم الأوائل الدنيوية، فكانوا واسطة لتعريف العرب بالثقافة الهيلينية من المصادر الرومية".** [218]

----

215 - تاريخ المسيحية الشرقية، عزيز سوريال عطية، ص 310

216 - مضمون التراث العربي المسيحي، الأب سمير خليل اليسوعي، مجلة صديق الكاهن 1983

217 - تاريخ أداب اللغة العربية، جرجي زيدان، ج 2 ص 28 ، ايضا: عصر السريان الذهبي، الفيكونت فيليب دي طرازي، ص15

218 - تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ج 2 ص 8

مما اشتهر من مدارس قبل الإسلام ومن بعده:

1 - **مدرسة الاسكندرية:** يقال أن مبشرا صقليا اسمه بانتينوس رأسها أولا سنة 190م، ثم خلفه القديس اكليمندس، ومن بعده اوريجانوس الاسكندري. من علمائها أيضا: بمفيليوس، اوسابيوس القيصري أبي التاريخ الكنسي الشهير، ويحيى النحوي، واسطيفان الاسكندراني، ويوحنا الأبامي، وسرجيوس الرأسعيني، وايتيوس الآمدي، وبولس الأجانيطي وغيرهم.

في النصف الثاني من القرن الرابع قلّد القديس اثناسيوس إدارة المدرسة وتعليمها إلى ديديمس الضرير، الذي برع في علوم اللاهوت والفلسفة والهندسة والرياضيات. وبعد مجيء الإسلام سخر علماءها تلك العلوم في إقامة الحضارة العربية، رغم ما آلم بهم من إحراق المسلمين لمكتبتهم بكتبها الحاوية لتراث أدبي وعلمي منقطع النظير.[219] فتذكر المصادر، أن خالد بن يزيد بن معاوية استدعى بعض علماء الإسكندرية وكلفهم بترجمة كتب العلوم اليونانية إلى العربية. [220]

2 - **مدرسة أنطاكيا:** اشتهرت انطاكيا بمدرستها اللاهوتية التي جعلت تضاهي وتنافس مدرسة الإسكندرية، ويعزى تأسيس المدرسة إلى المعلم والمفسر "لوسيان"، الذي استشهد سنة 312م. ومن معلميها ومفسري الكتاب فيها اشتهر ديودورس الطرسوسي.

3 - **مدرسة نصيبين:** أسسها مار يعقوب الكبير أسقف المدينة سنة 309م، وهو من المشاركين في مجمع نيقية. كان مار افرام من أبرز معلمي هذه المدرسة، التي فيها النظام أشبه بجامعة حقيقية، من حيث الاختصاصات وتنوع المعارف والمناهج، كما من ناحية التنظيم والتقيد بقوانين وضوابط وملابس خاصة وسكن للطلاب. إضافة إلى العلوم اللاهوتية والطقسية دخل ضمن موادها الدراسية، النحو والصرف والخط والخطابة والجدل والموسيقى والألحان والهندسة والرياضيات والفلك لاحتساب التقويم والأعياد والأصوام، وكذلك التاريخ والفلسفة، الأمور التي أفادت فيما بعد في ترسيخ الترجمة وانتقال العلوم. وكان علم التفسير في مقدمة برامجها، من هنا كانت ضرورة إجراء التحليل اللغوي (علم النصوص)، وامتحان النص وضبط الترجمة، وعقد المقارنات، والنقد الأدبي. أغلقت المدرسة لمدة تجاوزت القرن بعد سيطرة الفرس على نصيبين سنة 363.

4 - **مدرسة الرها:** أغلقت مدرسة نصيبين واضطر مار أفرام ومن معه من أساتذة إلى الرحيل عنها قاصدين الرها، حيث أنهضوا المدرسة التي ذاع صيتها في مجال العلوم اللاهوتية ونقل الدراسات الفلسفية الأغريقية إلى السريانية. يقول جرجي زيدان بأنها أشهر مدارس السريان، **"وفيها ابتدأ السريان يشتغلون بفلسفة ارسطو في القرن الخامس للميلاد".**[221] اشتهر من معلميها بعد افرام إيهيبا ومن بعده العلامة مار نرساي، وعلى عهده أغلقت المدرسة من قبل الإمبراطور زينون سنة 489 م. بسبب انتشار المذهب النسطوري فيها، فانتقل نرساي للتعليم في مدرسة نصيبين الجديدة.

5 - **مدرسة جنديسابور:** بعد أن أغلقت مدرسة الرها لجأ بعض علماؤها إلى مملكة فارس فخصّص ملكها مدينة جنديسابور مكانا لإقامتهم، حيث المدرسة التي اشتهرت بفضلهم بالطب والجراحة والصيدلة وبناء البيمارستانات.[222] وفي هذه المدرسة ترجمت مؤلفات اليونان في الطب إلى السريانية ثم نقلت إلى العربية، و ينتسب للمدرسة أطباء نساطرة ويعاقبة، منهم أسرة بختيشوع، وكان جرجيس بن بختيشوع رئيسا للأطباء فيها.[223]

6 - **مدرسة قطسفون أو المدائن:** هي في مقدمات المدارس السريانية في العراق، وفيها نشأ تاتيان الآشوري، وكان من أبرز قادة المسيحيين في القرن الثاني للميلاد، وهو صاحب الكتاب الشهير "الدياتسرون" أو "توافق الأناجيل الأربعة".

---

219 - تاريخ مختصر الدول، ابن العبري، ص 176

220 - الفهرست، ابن نديم، ص 245 – 246

221 - تاريخ أداب اللغة العربية، جرجي زيدان، ج 2 ص 28

222 - بيسمارستان كلمة فارسية وتعني مستشفى

223 - المسيحية والحضارة العربية، الأب الدكتور جورج شحاته قنواتي، ص 80

7 - مدرسة رأس العين: على ضفة نهر الخابور بين رأس العين والحسكة بالقرب من قرية المجدل. تفرّد رهبان ديرها المعروف بدير"قرقفة" بضبط حركات ألفاظ الكتاب المقدس وترنيم قراءته، وقد عرف من رأس العين سرجيس الرأسعيني سنة 536 م، المحبب إلى قبائل تغلب العربية المسيحية. كان إمام عصره في الطب والمنطق والفلسفة وهو أول النقلة من اليونانية إلى اللغة السريانية.[224]

8 - مدرسة قنسرين: أسسها يوحنا برافتونيا في القرن السادس، وذاعت شهرتها بوصفها مركزاً هاماً للدراسات اليونانية، والعلوم اللغوية والأدبية والكتابية والمنطقية والفلسفية والطبيعية واللاهوتية. من أبرز علماءها، ساويرا سابوخت، واثناسيوس الأول، ويعقوب الرهاوي، الذي كتب الكثير في قواعد اللغة السريانية واليه تنسب إدخال الحركات اليونانية الخمسة إلى السريانية، وجيورجيوس أسقف حوران المعروف بأسقف العرب، وتوما الحرقلي الذي نقل في العام 616 م العهد الجديد عن اليونانية إلى اللغة السريانية. وقد امتاز ساويرا بعلومه ومصنفاته الفلسفية والفلكية وعلى يده وصلت الأرقام الهندية إلى العربية. [225]

9 - مدرسة حرّان: وحرّان تقع إلى الجنوب من الرها وكانت أهم مراكز السريان، إلا أن الفكر الكوني كان في مدرستها غالبا على الفكر الديني المسيحي. اشتهر من معلميها يوحنا بن حيلان، ومن تلاميذه الفارابي.[226] وينسب إلى هذه المدرسة ثابت بن قرة السرياني الصابئي. [227]

10 - **مدرسة دير برصوما بملطية:** وأنجبت هذه المدرسة في القرن الثاني عشر والثالث عشر نخبة من العلماء أمثال يعقوب بن الصليبي مطران آمد، وميخائيل الكبير، والمفريان غريغوريوس ابن العبري.

----

224 - طرازي، ص 13

225 - طرازي، ص 13

226 - تاريخ مختصر الدول، ابن العبري، ص 295 - 296

227 - الصابئة هم أتباع يوحنا المعمدان وكانوا قد هجروا من فلسطين إلى حران.

الفصل الخامس

المسيحيون، رواد العصر الذهبي

"تحيا الأمم بآدابها لأن الآداب ترقي المرء فوق الحياة المادية وتسمو به إلى المدارك الشريفة وتقربه إلى عالم الأرواح وإلى الجمال الإلهي الذي منه يستعير كل مخلوق جماله. وعليه فإن أراد العاقل أن يعرف درجة التمدن التي بلغها شعب من الشعوب يبحث عن انتشار الآداب بين أهله" (الأب لويس شيخو).

البداية

خطت النهضة العربية خطواتها البدائية في ظل حكم الأمويين حين دعا خالد بن يزيد بن معاوية إلى ترجمة كتب الكيمياء من اللغة اليونانية والقبطية إلى العربية، كما وتتلمذ هو نفسه على يدي الراهب والعالم مريانوس آخذاً عنه علوم الطب والكيمياء. فيذكر ابن خلكان، أن خالد **"كان بصيرا بهذين العلمين، متقنا عمله، واخذ الصنعة على رجل من الرهبان اسمه مريانوس".**[228] واستكمل هذا الجهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، فأمر الطبيب السرياني اليهودي من البصرة ماسرجويه بترجمة كناش في الطب للقس أهرن بن أعين من السريانية. كما وأمر بنقل معاهد الطب من الإسكندرية إلى إنطاكيا وحران.[229]

لكن العرب المسلمون لم يلتفتوا كاملا إلى العلوم إلا في منتصف القرن الثاني للهجرة لانشغالهم بالغزو والفتوحات، فلمّا استراحوا ونسوا البداوة واستولى عليهم الترف والرفاهية شرعوا في طلبها زمن الخلفاء العباسيين ابتدءا من 750م فصاعدا، إثر انتقال إدارة الدولة الإسلامية من دمشق إلى العراق. فتألقت بغداد بحركة الترجمة التي قام بها المسيحيون في عهد الخليفة المهدي بن أبي جعفر المنصور، وفي عهد المأمون، مؤسس "بيت الحكمة".

أما مساهمة المسيحيين الشرقيين في نهضة الفكر العربي فتتشكل من صنفين:

أ - المعارف المدونة. أي ما تم تأليفه من قبل عرب أقحاح وعرب مستعربين باللغة العربية، في شتى المجالات وسائر العلوم المتداولة.

ب - المعارف المترجمة. أي ما ترجموه إلى العربية عن لغاتهم الأم. فلا يخف على أحد، أن الحضارة العربية قد تكونت من علوم الأمم القديمة. وأن الدولة العباسية حين كرست جهودها في نقل هذه العلوم من لغاتها الأصلية إلى اللغة العربية، كان للمسيحيين حصة الأسد في نقلها وتوطينها في العالم العربي.

يقول ابن العبري،[230] أن في زمانه وجد زهاء مائة كتاب للطبيب الإسكندري جالينوس، وهذه ترجم معظمها إلى العربية من اليونانية والسريانية بواسطة المسيحيين، جلهم من بلاد ما بين النهرين. إضافة إلى هذه ترجم المسيحيون في

---

228 - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، ج 2 ص224

229 - تاريخ مختصر الدول، ابن العبري، ص 157 و 192، العرب- تاريخ موجز، فيليب حتي، ص 113

230 - تاريخ مختصر الدول، ابن العبري، ص 122

مصر وبلاد الشام والعراق مختلف كتب الفلسفة والمنطق والبيان وسائر العلوم. وأقاموا أجيالا من الأطباء وعملوا على تأسيس البيمارستانات، ودكاكين الصيدلة.

طائفة من العلماء والأدباء والمفكرين

أنتجت المراكز المسيحية طائفة من الأدباء والعلماء والمفكرين والتراجمة، من الصعوبة بمكان تصنيفهم بحسب فروع المعارف، إذ أن معظمهم أبدعوا في مجالات عدة. هنا عدد منهم:

1 - آل بختيشوع، وهم الذين خدموا الخلفاء العباسيين بالترجمة والتطبيب، ومنهم جبرائيل بن بختيشوع رئيس مدرسة جنديسابور وأولاده. قيل فيهم: **"أجمل أهل زمانهم بما خصهم الله به من شرف النفوس ونبل الهمم ومن البر والمعروف والأفضال والصدقات"**. ويبرز ابن العبري شأنهم في قصور الخلفاء، فيخبرنا أن المنصور اتخذ جيورجيس طبيبا خاصا له، وفي آخر أيامه دعاه الخلفية المنصور إلى الإسلام. فقال له: **"أنا على دين آبائي أموت". فأجابه المنصور:" إنني منذ رأيتك وجدت راحة من الأمراض"**.[231]

2 - يوحنا بن ماسويه. أديب وطبيب وصيدلي وكبير المترجمين في عهد هارون الرشيد، وهو الذي نصحه بإقامة دار للكتب، التي شيدت في عهد المأمون على مثال مكتبة الإسكندرية، وسميت "بيت الحكمة"، وكان يوحنا رئيسا عليها. **"ولاّه الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة، وخدم الرشيد ومن بعده إلى أيام المتوكل، وكان معظّماً ببغداد جليل القدر وله تصانيف جميلة"**.وفيه اجتمع **"كل صنف من أصناف أهل الأدب"**. [232] من مؤلفاته: "البرهان"، "البصيرة"، "الكمال والتمام"، "الحميات"، "الأغذية"، "المنجح في الصفات والعلاجات"، "تركيب الأدوية المسهلة وإصلاحها"، "كتاب دفع مضار الأغذية"، "السموم وعلاجها"، "الصداع وعلله"، "لم امتنع الأطباء من علاج الحوامل في بعض شهور حملهن"، "كتاب في علاج العاقر"، "المعدة"، "التشريح"، وغيرها.

3 - آل حنين، ومنهم حنين ابن اسحق وأولاده اسحق وداود، وابن اخته حبيش بن الأعسم، وقد برعوا في النقل والفلسفة والطب. كان حنين طبيبا للخليفة المتوكل، ولمّا سأله الخليفة أن يصنع له السم لقتل الأعداء، امتنع معللا بالقول: **"شيئان هما، الدين والصناعة. أما الدين فأنه يأمرنا باصطناع الجميل مع أعدائنا فكيف ظنك بالأصدقاء. وأما الصناعة فهي موضوعة لنفع أبناء الجنس"**. [233]

أتقن حنين ببراعة العربية والسريانية والفارسية واليونانية واشتهر بدقته في الترجمة. ترجم 95 كتابا طبياً من اليونانية إلى السريانية وأربعين كتابا إلى العربية. وأعاد النظر في أكثر من مائة ترجمة بواسطة سرجيس الرأس عيني وأيوب الرهاوي وغيرهم من أطباء. [234] هو الشخص الذي أحدث نقطة تحول في تاريخ بيت الحكمة الذي أسسه المأمون في بغداد. من مؤلفاته: كتاب "الأغذية"، "علاج العين"، "تقاسيم علل العين"، "أدوية علل العين"، "علاج أمراض العين بالحديد"، "الأسنان واللثة"، "معرفة أوجاع المعدة وعلاجها"، "مقالة في البول"، "المولودين لثمانية أشهر"، "اختيار الأدوية المحرقة"، وغيرها. وله أيضا كتاب "المد والجزر"، وباللغة العربية كتاب "أحكام الإعراب على مذهب اليونانيين"، "النحو"، "النقط"، و"كتاب في مسائلة العربية".[235]

----

231 - تاريخ مختصر الدول، ابن العبري، ص 213 – 215، وأيضا: طبقات الأطباء، الباب الثامن

232 - ابن عبري، ص 227، طبقات، الباب الثامن

233 - ابن العبري، 250 و 252

234 - المسيحية والحضارة العربية، الأب الدكتور جورج شحاته قنواتي، ص 103

235 - الفهرست، ابن النديم ص 298 وأيضا طبقات الأطباء، الباب التاسع

4 - قسطا بن لوقا البعلبكي، المتوفي سنة 912. **"وقسطا هذا فيلسوف نصراني في الدولة الإسلامية".**[236] له أكثر من 60 مؤلف في مختلف العلوم. برع في ترجمة "عناصر" اقليدس إلى العربية، فكان له الفضل في خلق مصطلحات الرياضيات، التي ما زلنا نستعملها اليوم. له مصنفات عديدة، في علم الفلك، وعلم الحيل (أي الميكانيك). هو أحد الذين قصدوا بلاد الروم وجاءوا بكتب العلوم لترجمتها. يصفه ابن النديم: **"بارعا في علوم كثيرة منها الطب والفلسفة والهندسة والأعداد والموسيقى، لا مطعن عليه فصيحا باللغة اليونانية جيد العبارة بالعربية".** [237]

5 - سلمويه بن بنان. قال فيه الخليفة المعتصم بالله: **"سلمويه طبيبي أكبر عندي من قاضي القضاة لأن هذا يحكم في نفسي".** وقيل بأنه **"أعلم أهل زمانه بصناعة الطب وكان المعتصم يسميه "أبي".**[238]

6 - يوحنا بن حيلان. حكيم حران المسيحي السرياني. "قال القاضي صاعد بن أحمد: **"إن الفارابي أخذ صناعة المنطق عن يوحنا بن حيلان".**[239]

7 - أبو بشر متى بن يونان: وصف بأنه **"عالم بالمنطق، شارحا له، مكثر وطى الكلام، قصده التعليم والتفهيم وهو من أهل دير قنى ممن نشأ في أسكول (مدرسة) مار ماري".** هو أيضا ممن أخذ الفارابي المعرفة عنهم.[240]

8 - أبو يحيى المروزي. طبيب وفيلسوف سرياني ومعلم أبو بشر متى بن يونان.[241]

9 - أبو زكريا يحيى بن حميد بن زكريا. فيلسوف وناقل من السريانية إلى العربية.

10 - سابور بن سهل. صاحب كتاب "الترياق". وقد اشتهرا بالطب وتركيب الأدوية، ومات نصرانيا على دين آبائه.[242]

11 - عيسى بن يحيى بن إبراهيم. كان أيضاً تلميذاً لحنين بن إسحاق، وهو من الأطباء النقلة.

12 - يحيى بن عدي التكريتي، مفكر وأديب وفيلسوف من القرن العاشر ميلادي. له جملة من المؤلفات القيمة. **"اشتهر يحيى بن عدي بن حميد بن زكريا التكريتي، المنطقي نزيل بغداد. إليه انتهت رئاسة أهل المنطق في زمانه".**[243]

13 - أبو علي بن زرعة. أحد المتقدمين في علم المنطق وعلوم الفلسفة والنقلة المجودين، وكان كثير الصحبة والملازمة ليحيى بن عدي.

14 - أبو رائطة حبيب بن خدمة التكريتي، الناقل والفيلسوف. وصفه ديونوسيوس التلمحري بأنه متبسط في علم المنطق والفلسفة.

15 - أبو نصر يحيى بن جرير التكريتي، هو تلميذ بن زرعة، تلميذ يحيى بن عدي. طبيب ومؤرخ، صاحب "كتاب المرشد". كان أخاه سعد الفضل بن جرير طبيب الأمير ناصر الدولة بن مروان.

----

236 - ابن العبري، ص 259

237 - الفهرست، ابن النديم، ص 247 و 298

238 - طبقات، الباب الثامن، وأيضا ابن العبري 243

239 - طبقات، الباب 15، و ابن العبري، ص 295 296

240 - ابن العبري ص 285 ، أيضا: طبقات، الباب العاشر

241 - الفهرست، ص 267، طبقات، الباب العاشر

242 - ابن العبري، ص 255

243 - الفهرست، ص 267، طبقات، الباب العاشر

16 - آل عسال، وهم من كبار علماء الأقباط في القرن الثالث عشر. تبحروا في علم اللغات واشتهر منهم بشكل خاص مؤتمن الدولة أبو اسحق بن العسال صاحب مجموعة كبيرة من المؤلفات اللاهوتية، لعل أهمها "مجموع أصول الدين ومحصول اليقين"، وهي موسوعة لاهوتية قيمة. اشتهر أيضا الصفي بن العسال، وهو من كبار آباء الكنيسة القبطية وصاحب مجموع القوانين "المجموع الصفوي"، وهو أهم مرجع قانوني مسيحي حتى اليوم. [244]

17 - يوحنا الدمشقي، منصور بن سرجون، من مواليد سنة 660. من مؤلّفاته المعرّبة كتاب في الفلسفة والمنطق وفي علم الكلام. تتلمذ على يده ثاودورس أبو قرة.

18- ثاودورس ابو قرة، من مدينة الرها. درس الطب والمنطق والفلسفة، وتضلّع في اللغة العربية والعلوم اليونانيّة القديمة واللاهوت المسيحي والإسلاميات.

19 - منصور بن المقشر. "من الأطباء المتقدمين بالديار المصرية منصور بن مقشر أبو الفتح المصري النصراني وله منزلة سامية من أصحاب القصر". [245]

20 - أوتيخيوس سعيد بن البطريق. طبيب ومؤرخ مسيحي مصري من القرن التاسع. أبدع في الطب، وعين بطريركا على الإسكندرية. له عدد من المصنفات أشهرها "نظم الجوهر"، المعروف أيضا بـ "تاريخ ابن البطريق"، الذي أخذ عنه ابن خلدون. كما له كنّاس في الطب.

21 - الحجاج بن يوسف بن مطر الحاسب، وهو الذي ترجم كتاب المجسطي في الجغرافيا.

22 - إبراهيم بن عيسى. تعلم الطب على يد يوحنا ابن ماسويه ببغداد وسافر مع الأمير ابن طولون إلى مصر حيث أقام وتوفى.

23 - سعيد بن توفيل. كان في خدمة ابن طولون يصحبه في سفره.

24 – آل الجريح. اسحاق ونسطاس ابنه، الذين خدموا حكام مصر بالطب.

25 - ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرج. مؤرخ وفيلسوف ولاهوتي وطبيب سرياني عاش زمن قيام دولة المغول في القرن الثالث عشر. أجاد السريانية واليونانية والعربية والأرمنية والفارسية. أشهر مؤلفاته كتاب "تاريخ الزمان" بالسريانية، وترجمته العربية بعنوان "تاريخ مختصر الدول". من مؤلفاته الباقية: "المفردات الطبية"، "الأدوية المفردة"، "منافع أعضاء الجسد"، "تجارة الفوائد"، "حديث الحكمة"، "النفس البشرية"، "الأضواء".

26 - شمعون الراهب المعروف بطيبوبة الطبيب، وله كتاب في الطب مترجم إلى العربية وكان له أثر في تطور الطب الإسلامي. [246]

27 - ساويرس بن المقفع، أسقف الأشمونين في صعيد مصر. كاتب ومؤرخ مصري من القرن العاشر. تمكن في اللغة العربية واليونانية والقبطية، وعليم في الفلسفة اليونانية والإسلامية. وضع "كتاب السير"، وهو تاريخ جامع للكنيسة بالدولة في مصر. [247]

----

244 - التراث العربي المسيحي القديم، المعهد الاكليريكي اللاتيني الاورشليمي، الفصل الخامس

245 - ابن العبري، ص 316

246 - المسيحية والحضارة العربية، ص 94 ، طبقات الأطباء، الباب السادس

247 - التراث العربي المسيحي القديم، المعهد الاكليريكي اللاتيني الاورشليمي، فصل 5

28 - بولس الاجانيطي. طبيب مصري عاش زمن عمرو بن العاص. **"كان خيراً خبيراً بعلل النساء كثير المعاناة لهنّ...وله كتاب في الطب...وكتاب في علل النساء"**.[248]

29 - ابن أثال. من مشاهير الأطباء الدمشقيين. خدم معاوية بن أبي سفيان.

30 - أبو الحكم. **"كان طبيباً نصرانياً عالماً بأنواع العلاج والأدوية وله أعمال مذكورة وصفات مشهورة وكان يستطبه معاوية بن أبي سفيان ويعتمد عليه في تركيبات أدوية لأغراض قصدها منه"**. [249]

31 - عيسى بن الحكم، المشهور بمسيح، له كناش في الطب و "كتاب "منافع الحيوان"، و"رسالة في الأعشّاب والعقاقير".

32 - تياذوق، "كان طبيباً فاضلاً وله نوادر وألفاظ مستحسنة في صناعة الطب ... كان أعلم الناس وأحذق الأمة في وقته بالطب". [250]

----

248 - ابن العبري، ص 176

249 - طبقات، الباب السابع

250 - طبقات، الباب السابع

الفصل السادس

المسيحيون واللاهوت العربي الدفاعي

اللاهوت العربي هو إيماننا وإيمان أجدادنا ونتاجهم الفكري وأسلوبهم في فهم الذات الإلهية، الذي عبروا عنه بلغة الضاد، اللغة التي طوعوها لتبليغ الرسالة الإنجيلية. وهكذا فإن اللاهوتيين العرب هم الذين ألّفوا وكتبوا أعمالهم باللغة العربية، من عرب أقحاح أو من قوميات أخرى.

وقد شهدت القرون الأولى للإسلام العديد من اللاهوتيين العرب، بينما اختفى أثرهم من العصور السابقة له، رغم انخراط العرب القوي آنذاك في الحياة والخدمة المسيحية والكنسية. فيقول الدكتور جواد علي: **"ولم يترك رجال الدين من النصارى العرب لنا أثراً كتابياً ينبئ عن مدى اشتغالهم في علم اللاهوت".** [251] أما السبب في ظهورهم بعد الإسلام فيعود إلى إدراكهم مدى خطورة إهمال اللغة العربية والثقافة الجديدة، وأن التقوقع داخل القوميات الأصلية قد يؤدي إلى انكماش الرسالة الإنجيلية في بيئة عربية مسلمة.

لقد استعربت البلدان والشعوب ولم يكن بد للمسيحية من أن تحذوا حذوهم لكي تتواصل مع الثقافة والدين الجديد، وتصل إلى عقول غير المسيحيين بلغة يفهمونها، لغة غير بعيدة عن تعابيرهم وثقافتهم. ومن هنا كانت الأهمية أن يقدم المسيحيون على صياغة لاهوت ناطق "بلسان عربي مبين"، استدعت الأوضاع إلى خلقه. فكان لاهوتا عربيا امتزجت فيه الحقائق الكتابية مع الفلسفة اليونانية واللغة القرآنية.

وقد طغى على الفكر العربي المسيحي منذ نشأة الإسلام هاجس إثبات صحة العقائد المسيحية في مواجهة الفكر الإسلامي الرافض لها. ولمّا كان المسلمون يشككون في توحيد المسيحيين ويتهمونهم بالشرك، كان من اللازم تنزيه المسيحية عن هذه التهم، وتوضيح عقائدها. فركّز الكتّاب العرب المسيحيون أكثر ما ركّزوا على البعد الإلهي لشخصية المسيح والثالوث الأقدس وحقيقة الفداء، وهي المواضيع التي أخذت حيزا كبيرا في كتاباتهم، وما زالت إلى اليوم تحتل موقع الصدارة.

والذين أقدموا على محاورة المسلمين في القرون الأولى للإسلام هم كثر جدا، لعل أقدمهم يوحنا الدمشقي، وتعود مؤلفاته في هذا الشأن، ومنها "حوار مع المسلمين" و "ينبوع المعرفة" إلى سنوات الفتح الأولى، إلاّ أن يوحنا لم يضع كتاباته بالعربية، بل باليونانية.

وإني أختصر هنا ذكر المدافعين عن الإيمان المسيحي على البعض ممن وضعوا مؤلفاتهم باللغة العربية: [252]

1 - يحيى بن عدي التكريتي. كما مر بنا، هو من آلت إليه رياسة علم المنطق في زمانه. وقد ألف يحيى مقالات لاهوتية ودينية دفاعية كثيرة، فيها يشرح ماهية الوحدانية المسيحية وحقيقة الثالوث الأقدس وإمكان تجسد الله واتصاله بخلائقه، **"وإذا كان اتّصاله بنا ممكنًا، وكان لنا فيه غاية الشرف وله فيه كمال الجود، فلا يمنعه إلاّ العجز أو البخل. وهما من صفات النقص، فهو يتعالى عنهما. فيجب اتّصاله بنا".** [253]

----

251 - المفصل في تاريخ العرب، الدكتور جواد علي، فصل 82

252 - المعلومات مستقاة من: 1 - تاريخ سوريا، المطران يوسف الدبس 2 - المسيحية والحضارة العربية، الأب الدكتور جورج شحاته قنواتي 3 - التراث العربي المسيحي القديم، المعهد الاكليريكي اللاتيني الاورشليمي

253 - الأب سمير خليل، التراث العربيّ المسيحيّ القديم والإسلام، أيضا: المسيحيّة والإسلام مرايا متقابلة، مركز الدراسات المسيحيّة الإسلاميّة، ص 84-

لعل أعظم مؤلفاته شأنا "مقالة في التوحيد"، ويعتبرها اللاهوتيين أول بحث شاف كامل في وحدانية الخالق، في تاريخ الفكر العربي. هي بحثا فلسفيا في ذات الله وطبيعة وحدانيته، وتوضيحا لمعاني الوحدانية، وردا على الآراء التوحيدية الرائجة. جزء من المقالة يبيّن غلط أبي يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي في "مقالة في الرد على النصارى". ولم يكن يحيى أول من كتب في التوحيد بين الفلاسفة لكنه أول من أفرد بحثا شاملا في هذا الموضوع.

هنا لمحة في غاية الإيجاز لموضوع المقالة:

يبيّن يحيى فساد الآراء المختلفة في ذات الله، ويضع توضيح معنى "الواحد" أساسا لفهم الثالوث. الاختلاف الأول هو في معنى الوحدانية، إذ قال بعضهم، إنما نصف البارئ بأنه واحد، لننفي عنه معنى الكثرة، لا لنثبت له معنى الوحدة. وقال آخرون، أن معنى الواحد في البارئ هو أنه لا نظير له. الاختلاف الثاني: هل هو واحد، أم واحد وكثير ؟ فقالوا: إن الخالق واحد من كل حين، لا يتكثر من جهة من الجهات. وقال غيرهم: هو واحد من جهة وكثير من جهة.

ويفصح يحيى بأن الغرض من مقالته "**الفحص عن واحدٍ واحدٍ من هذه الاعتقادات وإيضاح بطلان باطلها وإبانة حقيقة محقها، بالبراهين الصحيحة والحجج الواضحة**". هنا البعض مما جاء فيها:

"وإن قيل: إن اسم الواحد هو اسم مشتق للمسمى من اسم معنى موجود في ذاته، فيكون إنما نُعت الخالق بأنه واحد من قِبَل وجود الوحدة له، التي اشتق من اسمها اسم الواحد، لزمهم أولاً: الإقرار بما أنكروه، من وجود معنى الكثرة في الواحد بوجه من الوجوه، والاعتراف بوجود ذلك، مع وضعهم استحالته وامتناعه ثم يلزمهم ذلك إما أن يُوجبوا معنَيين قديمَين أحدهما الذات التي اشتقّ لها الاسم، والآخر الذات التي اشتق من اسمها، وإما أن يقولوا إن ذات العلّة لم تكن واحدة، ثم صارت واحدة، إن أبَوا أن يبيّنوا معنَيَين قديمين؛ أو أن يُبطلوا ذات العلّة والوحدة فأما كيف يلزمهم إحدى هذه الشناعات، فإن ذلك على ما أنا واصف ... وأقسام الواحد ستة وهي: واحد هو جنس، وواحد هو نوع، وواحد هو نسبة، وواحد هو متّصل، وواحد هو حدّ، وواحد هو غير منقسم، من شأنه أن يحدث عنه ما هو منقسم... وإذ كان الكثير، إنّما يحتاج في قوامه إلى وجود ذات الواحد، لا إلى أن تكون ذات الواحد لا يوجَد معها شيء آخر غيرها، وذلك أن العشرة الأفراس، إنّما تحتاج، في أن توجَد عشرة أفراس، إلى أن توجد ذات الفرس التي هي في نفسها واحدة، لا إلى أن لا توجَد مع ذات الفرس شيء غيرها؛ فإنه لا يمنع وجودها، مع لونٍ وفراهةٍ، وعظم جثة أو صغرها، أن تكون، إذا اجتمعت مع فرسين أو أكثر، أن يتقوّم منها أفراس كثيرة فقد تبيّن أنه ليس يلزم، من وجود غير الواحد مع الواحد، امتناع وجود الكثرة بل لازم، بحسب هذا القول، وجود الكثير وذلك أنّه قد تضمّن وجود أشياء بعضها مع بعض وهذا هو معنى الكثير".[254]

2 - حبيب أبو رائطة التكريتي: عاش في أواخر القرن الثامن وبدايات القرن التاسع، وهو أسقف السريان على مدينة تكريت. يعد أبي رائطة من فلاسفة المسيحية البارزين، وفي طليعة من كتبوا حول الإيمان المسيحي باللغة العربية، إذ انبرى للدفاع عن المسيحية أمام هجمات الفكر الإسلامي على عقائد التوحيد والتثليث والتجسد والفداء.

وضع أبي رائطة عشرات من المقالات في التوحيد والتثليث، لعل أهمها: "رسالة في الثالوث الأقدس"، و "رسالة في التجسد"، و "توضيح حقيقة الدين المسيحي". وقد نشر له جورج غراف إحدى عشر وثيقة بالعربية والألمانية وهي تتضمن مجمل هذه المواضيع.[255]

في أحد النصوص بحسب رواية المؤتمن بن العسال جاء:

----

254 - التراث العربي المسيحي، فصل 3

255 - نشرها سنة 1951 في تاريخ الآداب العربية المسيحية. عن التراث العربي المسيحي، فصل 11

"لا تخلوا النصرانية من أن تكون إما حقًا وإما باطلا والذين قبلوها من أن يكونوا إما عقلاء وإما جهلاء، والعقلاء لا يقبلون ما لا يصح بالقياس المعقول إلا بالقهر، والجهال لا يمتنعون من الانهماك في اللذات الدنيوية إلا بالقهر، والقهر قهران إما قهر بالسيف وإما قهر من الله بالآيات. ولم نرى العقلاء ممن قبل دين النصرانية، قهر بالسيف فيقلبون ما لا يصح بالقياس المعقول. ولا الجهال قهروا بالسيف فيمتنعون من الانهماك في لذات الدنيا، وقد قبلها العقلاء بما لا يصح بالقياس المعقول وقبلها الجهال وهي تصد عن الانهماك في لذات الدنيا، فقد قهر الجميع بالآيات لا بالسيف والآيات أدل دليل على أن الدين الذي تكون فيه هو الدين الصحيح عند الله عز وجل والشريعة تطابق هذه المقدمات". [256]

3 - ساويرس بن المقفع، ولد نحو 915 وهو من أعظم الشخصيات القبطية ومن أشهر لاهوتيي عصره. جمع ساويروس بين العلوم الدينية والدنيوية، واشتهر بمعرفته الفائقة للكتاب المقدس، فحق فيه بجدارة لقب "الكاتب". يقال بأنه قد يكون أول من نشرا كتبا مسيحية باللغة العربية، لكن الأصح أن ثاودرس أبو قرة وابو رائطة التكريتي والشيخ يحيى بن عدي سبقوه إلى ذلك. وعليه يكون القول الأدق ما جاء عن الأب الدكتور جورج شحاتة قنواتي: **"هو من أول المؤلفين الأقباط الذين استعملوا اللغة العربية في كتب لها أصالة مرموقة".** [257]

اشتهر ساويروس بمجادلة المسلمين، ومن مؤلفاته الكثيرة كتاب "مصباح العقل"، وفيه شرحاً للأيمان المسيحي بمنهجية فلسفية. فالله هو **"الآب والابن والروح القدس... فاعل، قائم بذاته، أزلي، باق، سرمدي... حي ناطق. فنطقه كلمته، وحياته وروحه"**. أما في طبيعة المسيح فيقول: **"من جهة إنسانيته وتأنسه قابل الآلام والموت، ومن جهة أزليته ولاهوتيه غير ملموس ولا محسوس ولا متألم ولا مائت... فمن يشنع علينا بأننا نقول إن الإله قتل وصلب ومات فهو جاهل بأقاويلنا غير عالم بغرضنا".** [258]

4 - ثاودورس أبو قرة، أسقف حران، الذي عاش في القرن الثامن. هو أول مفكر مسيحي عربي يتناول القضايا اللاهوتية باللغة العربية، ويستخدم لغة الضاد للتعبير عن الإيمان المسيحي. وأبا قرة لا يرضى بإيمان لا ينظر العقل في مكنوناته، فعنده كل العقائد تكون موضوع نظر العقل قبل أن تصير من المسلمات.

من مؤلفاته "مجادلة مع المتكلمين المسلمين في مجلس الخليفة المأمون"، وهنا بعض سطورها:

" تقدم إليه رجل من بني هاشم وقال له: أخبرني ياأبا قرة: المسيح صلبته اليهود بهواه أم بغير هواه؟ ...فإن كان اليهود قد صلبوه بهواه فلا ذنب عليهم، وإن كان بغير هواه فهو رب ضعيف... قال أبو قرة للهاشمي: تقول يا مسلم أنا نحن افترينا على الله... بهواه أم بغير هواه؟ فإن قلت أنا افترينا عليه وكفرنا به بهواه فليس لنا عنده ذنب ولا عقوبة وإن قلت أنه بغير إرادته ولا هواه فقد صح عند الحاضرين أنه إله ضعيف حيث لم يهدنا إلى الإيمان الصحيح.

فصاحوا الجماعة وقالوا: ليس هذا نظير قول صاحبنا ولا جواب مقنع إلا أن الله هداك ولم نهتدي.

قال أبو قرة: رسولك يشهد عن ربك أنه قال: من أضللناه فلا مهدي له ومن هديناه فلا مضل له.

قال ابو قرة: ...فإذا غزوت أنت وأخيك ... فلقيكم علج اقترب منكم فضرب أخاك ضربة أذنه وجعله قريبا للموت...أليس أنك تنتقم منه؟

قال الهاشمي: كنت أقتله...

قال أبو قرة: ...ذلك العلج سبب دخول أخيك الجنة فقتله ما هو واجب...

قال الهاشمي: إن العلج لم يطلب من أخي غير قتله ولم يريده يدخل الجنة...

----

256 - التراث العربي المسيحي، الفصل 11

257 - المسيحية والحضارة العربية، الأب الدكتور جورج شحاته قنواتي، ص 199

258 - التراث العربي المسيحي، فصل 16

قال أبو قرة: أعقل هذا وميزه: إن اليهود لما صلبوا السيد المسيح لم يريدوا موافقته وإتمام ما تنبأت عليه الأنبياء وإنما كان يقينهم هلاكه واطماس اسمه ومحو ذكره من العالم فهو يدينهم ويكافئهم".[259]

5 - **البطريرك طيموثاوس الأول النسطوري**. ولد في بلدة الحزة الواقعة في شمال الموصل سنة 727 . تعلم اللغة العربية واليونانية والطب والمنطق والترجمة وأصبح أسقف على باجاس حوالي سنة 770.هو أبرز شخصية قامت في كنيسة المشرق في العهد العباسي الأول. وصف بالمحنك والديناميكي والإداري والمنفتح. له بالعربية محاورة دينية جرت بينه وبين الخليفة المهدي، فعرض عليه الخليفة 27 سؤالا عن النصرانية، فأجاب عليها. [260] وكثيرا ما كان الخليفة يدعوه إلى البلاط للمناقشات العلمية أو الدينية مع الفلاسفة الآخرين. هنا جزء من حواره مع الخليفة:

"حينئذ قال لي الملك: هل ينفصل الكلمة والروح القدس من الله؟

فجاوبناه: حاشا وكلا. فكما أن الأشعة والحرارة لا تنفصلان من الشمس قطعا، هكذا كلمة الله وروحه لا ينفصلان منه أبدا. وكما أنه، إذا انفصلت أشعة الشمس وحرارتها منها، يزول نورها وحرارتها، ولا يمكن أن تدعى شمسا، هكذا الله سبحانه، إذا انفصل منه الكلمة والروح، يكون لا ناطقا ولا حيا. وأما الناطق لا يقال عنه إنه معدوم الحياة والروح...ثم كما أن الرائحة والذوق يصدران من التفاحة، فليس الرائحة تصدر من جزء منها والذوق من جزء آخر، بل كلاهما يصدران من التفاحة كلها؛ فالذوق لا يكون الرائحة، ولا الرائحة تكون الذوق؛ هكذا يتلد الابن من الآب ويصدر منه الروح، بنوع غير محدد، أعني الأزلي يخرج من الأزلي، وغير المصنوع يصدر من المصنوع.

ثم قال لي ملكنا: إن كان الأقانيم لا ينفصلون ولا يفترقون من بعضهم بعض، فإذا الآب والروح القدس تجسدا مع الكلمة.

فجاوبنا قائلين: كما أن كلمة الملك، إذا اتحدت (أي سطرت في القرطاس)، ليس يقال عن نفسه وذهنه إنهما اتحدا(أي رسما في القرطاس) مع أن نفسه وذهنه لا ينفصلان من الكلمة؛ هكذا كلمة الله اتخذ جسداً، من دون أن ينفصل ويفترق من الآب والروح القدس. ولا يقال عن الآب والروح القدس إنهما اتخذا جسدا".[261]

6 - **حنين بن اسحق**: لم يعرف فقط بمساهمته في النهضة العلمية بل أيضا في مؤلفاته الدينية الدفاعية المبنية على العقل والمنطق. وله في هذا الشأن مقالة عنوانها "كيفية إدراك حقيقة الديانة"، وفيها رد على صديقه ابن المنجم، الذي يدعوه إلى الإسلام. هنا موجز لها:

"... ثم اتبعتَ ذلك باقتصاص أمر نبيك ...وادعيت أنه كان أذكى أهل الأرض وألطفهم حيلة وأدقهم فهما ومعرفة، وأن قومه كانوا أجهل الناس وأغباهم، أي العرب، ولعمري ما تتهيأ الحيلة لأحد على قوم إلا أن يكون حالهم الحال الذي وضعت قوم صاحبك، أي أنك جعلت النبي محمد من أذكى الناس والعرب من أجهل الناس، فوضعته موضع المحتال... وعجبت أيضا في القول الذي زعمت أنه برهان عليّ، وأنت تعلم أن البرهان لا يقام على أحد إلا من إقراره. وأنا لم أقر لك قط أن الكتاب الذي جاء به صاحبك حق ولا شيء مما وصفت فيه...

فأقول ان صحة كل واحد من الأقاويل المقبولة بالخبر يعرف حقه من باطله من الأسباب التي دعت من أول الأمر الى قبوله لأنها مباينة لأسباب الباطل. لأن أسباب الباطل هي ستة:

أولها: أن يضطر القابل لمخاطبه إلى أن يقبل منه ما يقول من غير إرادته ولا اختياره.

والثاني: أن يكون الإنسان في ضيق وشدة فينتقل منهما إذ لم يقدر على احتمالهما إلى ما يرجو منه السهولة والسعة.

والثالث: أن يؤثر العز على الذل، والشرف على الضعة، والقوة على الضعف، فينتقل من دين إلى غيره.

----

259 - تقديم وتحقيق الارشمندريت اغناطيوس ديك سنة 1999

260 - المخطوطات العربية، لويس شيخو، 140، 141 ، عن معجم المؤلفين، عمر رضى كحالة ج 5، ص 46 . جرى الحوار سنة 785 م. ويعتبر من أقدم المخطوطات التي وضعت في بداية العصر العباسي. والمهدي هو الخليفة العباسي بن العادي ثالث خلفاء العباسيين، الذي اتسم حكمه بالانفتاح والتفاهم.

261 - دفاعيات مسيحية في العصر العباسي الأول، نداء الرجاء، ص 11 - 18

والرابع: أن يكون صاحب الكلام خبيثاً محتالاً في القول، فيموه به ويطغي من يدعوه إليه.
والخامس: أن يكون بين قوم كثيري الجهل فيستعين بجهلهم وقلة آدابهم على ذلك.
والسادس: أن يكون بين المدعو وبين غيره نسب طبيعي، فلا يجب قطع ذلك النسب فيما بينهما فيوافقه في دينه... فأنا مبين أمر ديننا وانه قبل من الأسباب التي بها يقبل الحق وليس فيه شيء من أسباب الباطل. فأقول:
أولها: أنه ما قبل بقوة من الملوك ولا حرب من السلطان، بل جميع ملوك الأرض قاوموه ...
والثاني: أنه لم يدعو من أمر ضيق إلى أمر واسع سهل ...
والثالث: أنه لم يدعو من الذل إلى العز ... لكن بالعكس من العز إلى الاتضاع ومتاركة الدنيا ...
والرابع: أن الدعاة إليه لم يكونوا أصحاب حيل وتموه بالكلام ...
والخامس: أن القابلين له لم يكونوا أغبياء وجهلاء لكن بلغاء في المنطق وهم فلاسفة العالم وأصحاب البحث...
والسادس: أن القابلين له أيضا لم يكن قبولهم له ليصلهم بأصدقائهم وأحبائهم، لكن كانوا يفصلونهم ويقطعونهم عن ذوي أرحامهم...

وان احببت أن ازيدك خلة سابعة: ... أن مقالة المسيحيين من أصعب ما يمكن ورغم ذلك قبلت المسيحية وانتشرت".[262]

أيضا من بين الذين كتبوا بالعربية: إيليا النُصيبي، مطران نصيبين (975 - 1046) صاحب كتاب "المجالس"، وفيه دوّن إيليا الحوارات الدينية التي دارت بينه وبين الوزير أبي القاسم بن علي المغربي. وبولس الصيداوي من القرن الثاني عشر المعروف بالإنطاكي، وله نص يحتوي على خمس مقالات في العقيدة المسيحية. وأبو زكريا دنحا، وفيه قال المسعودي: **"متفلسفا، جدالا، نظارا. جرت بيني وبينه مناظرات كثيرة ببغداد".**[263] وعمار البصري صاحب كتاب "المسائل والأجوبة" و كتاب "البرهان على سياقة التدبير الإلهي"، وهو جواب على نقائض الإسلام للمسيحية. وأبو الحسن بن المحرومة من مدينة ماردين في القرن الثالث عشر، له كتاب "الحواشي"، للرد على اليهودي ابن كمونة. وإبراهيم الطبراني الذي حاور الأمير عبد الرحمن بن عبد الله الهاشمي حوالي سنة 820. وعبد الله بن الفضل صاحب "كتاب البرهان في تثبيت الإيمان"، وغيرهم.

----

262 - التراث العربي المسيحي القديم، الفصل 14
263 - التراث العربي، الفصل الخامس

الفصل السابع

المسيحيون، صانعوا النهضة الحديثة

لمّا بدت علامات الشيخوخة تأخذ طريقها إلى جسد الدولة العثمانية في منتصف القرن التاسع عشر، حاول السلاطين أن يبعثوا فيه الحياة، فخلقوا بما يعرف بـ "التنظيمات"، التي من أهم بنودها المساواة بين رعايا الدولة. هذا النموذج الغربي أدى إلى حدوث تغييرات كثيرة في شتى مجالات الحياة وسمح للمسيحيين بالمشاركة الفعالة في نهضة المجتمع العربي.

ولا مراء أن المدارس المسيحية، كما في الماضي، لعبت الدور الأهم في الترقي العلمي والأدبي، لاسيما بعد قدوم الإرساليات المسيحية إلى الشرق، اليسوعيين والدومنيكان والبروتستانت. وقد أنشأ المسيحيون بمختلف طوائفهم مدارس خاصة خرَّجت طبقة من المتعلمين تتميز بثقافة عالية وبمعرفة ممتازة للغة العربية. منها مدرسة عين ورقة وعين تراز وبكفيا وزحلة وحمص ووادي النصارى وحلب. وأقام المرسلون البروتستانت سنة 1835 في بيروت أول مدرسة للإناث، وفي سنة 1846 أسسوا مدرسة لاهوتية في عبيه، ثم سنة 1866 أسسوا الكلية السورية الإنجيلية في بيروت. [264] عقب ذلك قدم إلى المنطقة رهبانيات عديدة منها "إخوة المدارس المسيحية"، ولها يرجع الفضل في إقامة كلية بيرزيت سنة 1924 في فلسطين.[265]

كانت للمدارس المسيحية مناهج خاصة بها مع الحرية في اختيار لغة التعليم. وحرصا منهم على اللغة العربية أقبل المسيحيون على إتقانها والتعليم بها، وبذلك سبقوا المدارس الحكومية التي كانت تعلم باللغة التركية؛ **"وكانت الدروس العربية في كل هذه المدارس راقية، فإن منها خرج معظم الذين اشتهروا بالكتابة في القرن المنصرم (التاسع عشر)، وخصوصا بين النصارى"**.[266] واستطاع المسيحيون أن ينشئوا التعليم العربي الحديث في مدارسهم وتخريج جملة من الأدباء، ممن أقبلوا على اللغة العربية يكشفون أسرارها وينقبون عن مكانزها. فكان ذلك دعماً للغة العربية ولازدهار بيانها.

ويعتبر الاهتمام باللغة العربية ومحاولة إحياءها العامل الأساسي لحركة النهضة العربية في القرن التاسع عشر. أما بذور النهضة فترجع إلى ما قبل ذلك، ويمكن تتبع آثارها في أعمال المطران جرمانوس فرحات من القرن الثامن عشر في حلب، الذي وضع مؤلفات عديدة وقيمة في النحو والصرف وإعراب المفردات، لعل أهمها "بحث المطالب"، الذي يعتبره البعض أول كتاب وضع في ضبط قواعد الصرف والنحو للغة العربية. مع مطلع القرن التاسع عشر لمع جملة من الأدباء والمفكرين المسيحيين كان لهم الشأن المهم في ترقية الآداب العربية وبلورة الفكر العربي القومي الحديث، فوصفوا بحق "أركان النهضة العربية". من هذه القافلة: [267]

1 - المعلم بطرس البستاني. ولد سنة 1819 في دبية - لبنان. له "محيط المحيط"، وهو أول قاموس وضع في شرح

----

264 - نالت شهرة واسعة تحت نظارة الدكتور دانيال بلس ومساهمة الدكتور كرنيليوس فان دايك، وقد تسمت فيما بعد بالجامعة الأمريكية. راجع: لويس شيخو، تاريخ الآداب العربية، ج1 فصل2

265 - أقيمت المدرسة بهمة السيدة نبيهة ناصر في بيت والدها القسيس حنا ناصر، ثم تطورت إلى كلية فجامعة خرّجت العديد من الشخصيات الفلسطينية المرموقة. (دراغمة، عزيز. الحركة النسائية في فلسطين، مكتب ضياء للدراسات، ص 172).

266 - لويس شيخو، تاريخ الآداب العربية، ج1 ص 51

267 - مراجع هذا الجزء: 1 - المساهمة المسيحية في فكر النهضة العربية بقلم: الأرشمندريت إيليا طعمه 2 – تاريخ الآداب العربية، لويس شيخو 3 – المنجد في الأعلام 4 - الصحافيون المسيحيون الحلبيّون في العصر الحديث، الأرشمندريت اغناطيوس ديك

المفردات العربية، وله "دائرة المعارف" وهي أول موسوعة معرفية عربية.[268] كما واشترك في ترجمة الكتاب المقدس إلى العربية،[269] وعمل على نشر مبدأ العدالة وفصل السلطات في الدولة وإدخال التعليم الإلزامي. ويعتبره البعض أول من دعا إلى تعليم المرأة في الشرق. أنشأ بطرس مع ابنه سليم أربع صحف ومجلات: "نفير سوريا"، "الجنة"، "الجنان"، "الجنينة". له ينسب شعار "حب الوطن من الإيمان".

2 - **الشيخ ناصيف اليازجي**. ولد في قرية كفر شيما – لبنان سنة 1800 وسط عائلة أصولها من حمص. اهتم بالنحو والبلاغة والعروض ولعب دورا كبيرا في إعادة استخدام اللغة الفصحى. حضنته الجامعة الأمريكية فصنف مجموعة من المؤلفات اللغوية تعتبر بعث اللغة العربية في العصر الحديث. وقد شارك هو الآخر مع المرسلين الانجيليين في ترجمة الكتاب المقدس، ونظم مجموعة كبيرة من الترانيم الروحية للكنيسة البروتستانتية.[270] من مؤلفاته القيمة: "نار القرى في شرح جوف الفرا" وهو في الصرف والنحو، وأيضا "فصل الخطاب في أصول لغة الأعراب"، وهي رسالة في التوجيهات النحوية، و "عقد الجمان في علم البيان"، و "قطب الصناعة" في أصول المنطق.

3 - **الشيخ إبراهيم اليازجي**. هو ابن ناصيف من مواليد 1847. شاعر وأديب ومفكر وصحفي، أتقن السريانية والعبرية. له "نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد". أسس مجلة "الضياء" وحرر جريدة "النجاح"، وأعان اليسوعيين في تنقيح ترجمتهم للكتاب المقدس. هو صاحب البيت الشهير **"تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب"**.

4 - **الفيكونت فيليب دي طرازي**. سرياني من مواليد بيروت سنة 1865. ترجع أصول عائلته إلى حلب والموصل. أتقن العربية و الفرنسية و اللاتينية و اليونانية القديمة، وأسس دارالكتب الوطنية في بيروت، التي ترأسها بنفسه 20 سنة. من مؤلفاته: "خزائن الكتب العربية في الخافقين" (أربعة مجلدات)، و" بحث تاريخي علمي عن القرآن"، و"إرشاد الأعارب إلى تنسيق الكتب في المكاتب"، و "عصر السريان الذهبي" و " تاريخ الصحافة العربية"، وهو الكتاب الأول و الوحيد من نوعه في اللغة العربية.

5 - **فرنسيس مراش**. أديب مسيحي حلبي، تلقى علوم الطبّ في حلب وتعلم علوم العربية وآدابها. حارب الاستبداد وطالب بالمواطنة. بعد أن فقد بصره في سن مبكرة، انكب على التأليف حتى وفاته سنة 1874. وأشهر رواياته "غابة الحق". ويعتبرها بعض النقاد أول رواية عربية.

6 - **يعقوب صروف**. أديب وعالم وصحفي ومترجم. ولد سنة 1852 في الحدث – لبنان. أصدر وحرر عدة صحف ومجلات وكان له الفضل بتقريب مناهل العلوم الغربية إلى قراء العربية فأغنى المكتبة العربية بترجمته المؤلفات الرياضية والفلسفية والعلمية وبأبحاثه المتواصلة في مجلة المقتطف.

7 - **لويس معلوف**. من علماء العربية وأعلام النهضة الحديثة في مجالي النشر والإعلام. ولد في زحلة - لبنان سنة 1867. درس الفلسفة واللاهوت وأتقن عدة لغات. هو صاحب القاموس الشهير "المنجد في اللغة العربية".

8 - **خليل خوري**. شاعر وكاتب وأديب، ولد في الشويفات - بلبنان سنة 1836. أسس جريدة "حديقة الأخبار"، واشتهر بروايته "وي إذاً لست بإفرنجي"، وقيل فيها "باكورة الروايات العربية".

----

268 - قال د.عبد الكريم اليافي عن محيط المحيط: "جامعاً لكل ما يحتاج إليه المتعلم والباحث في حدائق التراث وبساتين اللغة ومتداول الكلم والمصطلحات. وأولى مزاياه الشمول والتجميع والإحاطة والإيجاز والدقة إلى مدى بعيد. ويكاد يغني عن معجمات عدة ومراجع قديمة ومستجدّة " مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق – العدد : 48 - السنة 12 - تموز "يوليو" 1992

269 - نشأت الترجمة بهمة المرسلون الإنجيليون عالي سميث وكرنيليوس فان دايك. هي الأكثر انتشارا بين الترجمات، وتصدر عن دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط. يذكرها شيخو في تاريخ الآداب العربية ج2 فصل 2

270 - نشرت معظمها في كتاب الترانيم الروحية، مكتبة المشعل الانجيلية الوطنية – بيروت 1965

9 - الأب أنستاس الكرملي. لغوي وأديب عراقي لبناني. ولد في بغداد سنة 1866. دعا إلى التصحيح اللغوي وكان يرى في الخروج على العربية خطئاً لا يمكن قبوله أو التساهل فيه. له معجم "المساعد"، و "أغلاط اللغويين الأقدمين"، و"نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها". ولعله من ابرز علماء اللغة العربية المحدثين الذين ساهموا مساهمة حقيقية في إثراء العربية ومصطلحاتها ومرادفاتها. من ملاحظات الكرملي على الترجمة العربية للإنجيل، أن الصلاة الربانية يشوبها بعض الخلل في صياغتها. فقال: **"قولهم ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض هو غير فصيح، ولا يجوز أن يقال مثل ذلك التعبير. والذي نراه لائقا بالله ... تقدس اسمك، أتى ملكوتك، كانت مشيئتك ... أما أنه لا تقول العرب ليأت ملكوتك ونحوه، فلأنها لا ترى من اللائق بجلالته وعزته أن يؤمر، بل أن يتمنى الشيء منه تمنيا".** [271]

10 - الأب لويس شيخو. سرياني من مواليد ماردين بالجزيرة الفراتية سنة 1859. انتقل إلى بلاد الشام وتعلم في مدرسة الآباء اليسوعيين في غزير بلبنان. هو منشئ مجلة المشرق في بيروت، له مؤلفات عديدة قيمة، منها: "المخطوطات العربية لكتبة النصرانية"، و"شرح مجاني الأدب في حدائق العرب"، و "النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية".

11 - سليم سركيس. صحفي وأديب لبناني. ولد في بيروت سنة 1869، عمل في سن باكرة من عمره في مجلة "الجنان". أنشأ في لندن جريدة "رجع الصدى"، وفي باريس جريدة "كشف النقاب"، وفي الإسكندرية جريدة "المشير". له كتاب "غرائب المكتوبجي" أهداه إلى السلطان عبد الحميد الثاني، وفيه نقد جريء للسلطة العثمانية، وبدأ الإهداء بجملة "مولاي يسوؤني إنني من جملة رعاياك". صدر على أثرها حكم بإعدامه، فهرب إلى أميركا.

12 – لويس صابونجي. سرياني مولود سنة 1838 في ديار بكر بالجزيرة الفراتية. تلقى العلوم العقلية والنقلية على اختلافها. أنشأ في بيروت مدرسة صار لها شأن نهضت بأسباب التربية الحديثة. هو أول من أدخل فن التصوير الشمسي إلى لبنان. عهد إليه السلطان عبدالحميد بتعليم أنجاله. أنشأ مجلة "النحلة" و جريدة "الاتحاد العربي" وجريدة "الخلافة"، كما عمل محررًا في صحيفة "مرآة الأحوال". كان عضوًا في المجلس الكبير لنظارة المعارف على عهد السلطان عبدالحميد. له: "أصول القراءات العربية والتهذيبات الأخلاقية" و "قاموس الألفاظ والمصطلحات العلمية في الفلسفة وغيرها من العلوم والفنون" و"فلسفة ما بعد الطبيعة".

يطول بنا الحديث عن جميع رواد النهضة العربية، لذا توجب الاختصار. فأذكر منهم عابرا:

أديب اسحق - جبرائيل الدلال- جبران خليل جبران- جرجي زيدان- فيليب حتي- أمين الريحاني- ميخائيل مشاقة- سعيد فاضل عقل- سليم البستاني ابن بطرس- بطرس البستاني رئيس أساقفة صور وصيدا- الأب جرجي جنن، وله "مغالط الكتاب ومناهج الصواب"- رشيد الشرتوني، وله "مبادئ العربية" وهو في الصرف والنحو- خليل السكاكيني، وله "الجديد في القراءة العربية" أربعة أجزاء- قسطاكي حمصي، وله "منهل الوارد في علم الانتقاد" في 3 أجزاء- شبلي الشميل- الموصلي اقليمس يوسف داود - المعلم إبراهيم سركيس، وله "نزهة الأفكار في أطايب الأشعار" و"الدرة اليتيمة في الأمثال القديمة"- نجيب حبيقة - إسكندر آغا ابكاريوس، وله "روضة الادب في طبقات شعراء العرب" و "نهاية الأرب في أخبار العرب"- بطرس كرامة - سليم تقلا - بشارة تقلا - نوفل بن نعمة الله نوفل، وله "زبدة الصحائف في أصول المعارف" - يوسف الشلفون - فارس الشدياق - المطران يوسف الدبس - عبد الله مراش - جميل نخلة المدور، وله "تاريخ بابل وآشور" و "حضارة الإسلام" - بشارة زلزل، وله "تنوير الأذهان في حياة الإنسان والحيوان" - اسعد يعقوب الخياط - جرجس عبد يشوع خياط - القس يوسف داود، وله "تنزيه الألباب، في حدائق الآداب" و"جني الأثمار، من لطائف الأخبار" - المطران جرجس عبد يشوع الموصلي، وله "روضة الصبي الأديب في أصول القراءة والتهذيب" - مارون عبود - نجيب الحداد - رشيد الدحداح، وغيرهم.

---

271 - مشير باسيل عون، الفكر العربي الديني المسيحي، ص 114

الفصل الثامن

الدور المسيحي في الصحافة العربية

حاز المسيحيون العرب خير نصيب من تاريخ الصحافة والنشر في البلدان العربية، وكانوا في طليعة رواد الصحافة الدينية والقومية في نهاية العهد العثماني. هنا جدول زمني لأهم الإنجازات المسيحية في مجال تأسيس المطابع ودور النشر وإصدار الصحف والمجلات: [272]

1610 - تأسيس مطبعة دير قزحيا في لبنان باللغة السريانية.

1706 - أسس المسيحيون أول مطبعة بالعربية في بلدان العرب وهي "مطبعة حلب". [273]

1753 - تأسيس "مطبعة القديس جاورجيوش" للروم الأرثوذكس في لبنان.

1834 - نقل المرسلون الإنجيليون الأمريكان مطبعتهم من مالطة إلى بيروت.

1841 - مطبعة الآباء الفرنسيسكان في القدس تباشر عملها.
- بلفنطي السرديني يؤسس مطبعة في حلب.

1851 - أصدر الإنجيليون في بيروت أول مجلة سنوية بعنوان "مجموع الفوائد".
- تأسيس مطبعة القدس لليونان الأرثوذكس.

1852 - أصدرت الإرسالية الانجيلية الأمريكية في بيروت مجلة شهرية تحمل اسم "الجمعية السورية"، وشارك في تحريرها الشيخ ناصيف اليازجي والمعلم بطرس البستاني مع الدكتور كورنيليوس فان دايك.

1854 - الحلبي رزق الله حسون يصدر أول صحيفة أسبوعية سياسية خاصة ومستقلة في القسطنطينية، يسميها "مرآة الأحوال" وينتقد فيها العثمانيين، فيحكمون بإعدامه غيابيا.

1855 - حنا الدوماني يؤسس مطبعة في دمشق.

1856 - تأسيس "مطبعة الدومنيكان" في الموصل.
- تأسيس "المطبعة الكلدانية" بواسطة رافائيل مازجي في الموصل.

1857 - حرر اسكندر أفندي شلهوب جريدة "السلطنة" في استنبول ومن ثم نقلها إلى القاهرة.
- المطران يوسف مطر يؤسس مطبعة على الحروف في حلب.

----

272 - المراجع مستقاة من: 1 - تاريخ الصحافة العربية، فيليب دي طرازي 2 - تاريخ نصارى العراق، روفائيل بابو إسحاق 3 - تاريخ الآداب العربية، لويس شيخو 4 - الصحافيّون المسيحيّون الحلبيّون في العصر الحديث، الأرشمندريت اغناطيوس ديك 5 - المنجد في الأعلام 6 - الصحافة العربية نشأتها وتطورها، أديب مروة.

273- يختلف المأرخون في تاريخ تأسيسها. بطرس البستاني يحدده سنة 1698 بينما يقول خليل صابات أنها أنشأت سنة 1706

1858 - أنشأ الأديب خليل خوري في لبنان أول جريدة عربية يومية سماها "حديقة الأخبار"، وأسس لهذا الغرض "المطبعة السورية".
- رشيد الدحداح يصدر جريدة "برجيس باريس" في باريس.

1860 - إثر المذابح الطائفية التي عصفت بالبنان، المعلم بطرس البستاني يؤسس جريدة "نفير سوريا" ويدعو إلى الوحدة الوطنية.

1861 - يوسف الشلفون يؤسس "المطبعة العمومية" في بيروت.

1870 - الانجيليون يحررون في بيروت وغزة "النشرة الأسبوعية".
- اليسوعيون يباشرون بتحرير جريدة "البشير".
- يوسف الشلفون يخرج جريدة أسبوعية اسمها "الزهراء".
- القس لويس صابونجي يخرج جريدة "النحلة"، و بسبب نقدها اللاذع أصدر الوالي العثماني أمر بإيقافها.
- بطرس وسليم البستاني ينشأن مجلة "الجنان" وجريدة "الجنة".

1872 - رزق الله حسون يؤسس جريدة "آل سام" في لندن.
- الشيخ إبراهيم اليازجي يحرر جريدة "النجاح" في بيروت.

1875 - تأسست "جريدة الأهرام" في الإسكندرية على يد الأخوين الشاميين بشارة و سليم تقلا، وصدر العدد الأول منها في السنة التالية.

1876 - أنشأ يعقوب صروف وفارس نمر مجلة "المقتطف" في بيروت.
- القس لويس صابونجي يصدر نجدداً جريدة "النحلة" في لندن.
- خليل سركيس يُنشيء "المطبعة الأدبية" في بيروت.

1877 - الكاتب والصحفي أديب إسحاق يصدر في القاهرة جريدة "مصر".
- جبرئيل دلال الحلبي يصدر صحفية "الصدى" في باريس.
- خليل سركيس ينشيء جريدة "لسان الحال" في بيروت.

1878 - إبراهيم اليازجي، وبشارة زلزل، وخليل سعادة، والطبيب الدمشقي داود أبو اشعر يصدرون أول مجلة طبية بالعربية في بيروت هي "الطبيب".[274]

1879 - أديب إسحاق يصدر جريدة "التجارة" بالإسكندرية.
- تأسيس "مطبعة الأنجليكان" ومطبعة "الميتم السوري الألماني" في القدس.

1886 - شبلي الشميل يصدر مجلة "الشفاء" في القاهرة.

1888 - يعقوب الصروف وشاهين مكاريوس وفارس نمر يصدرون جريدة "المقطم" في مصر.

1892 - إصدار أول صحيفة في المهجر الأميركي بواسطة إبراهيم ونجيب عربيلي واسمها "كوكب أمريكا".

---

274 - لويس شيخو في تاريخ الآداب والفصل الثاني يؤرخ إصدارها سنة 1884، لكن الأصح أنها في هذا التاريخ أصدرت تحت إدارة جديدة.

- جرجي زيدان ينشىء في مصر مجلة "الهلال" ويؤسس دارا للنشر تحمل ذات الاسم.
- سليم سركيس يصدر "كشف النقاب" في باريس.

1894 - نجيب الحداد، حفيد ناصيف اليازجي ينشئ جريدة "لسان العرب" في الإسكندرية، وإليه ينسب ابتداع مصطلح "صحافة"، كما وكان رشيد الدحداح أول من استخدم لفظ "صحيفة".
- سليم سركيس يصدر جريدة "المشير" في الإسكندرية.

1897 - ميخائيل صقال يصدر مجلة "الأجيال" في القاهرة.
- إبراهيم اليازجي و الدكتور بشارة زلزل يصدران مجلة "البيان" في القاهرة.
- عبد المسيح أنطاكي يصدر مجلة "الشذور" أو "رسائل أدبيّة" في حلب وتطبع في بعبدا.

1898 - السيدة اللبنانية إسكندرة نعمة الله خوري تصدر مجلة "أنيس إنجليس" في الإسكندرية، فكانت المرأة العربية الأولى في هذا المجال.
- عبد المسيح أنطاكي يصدر مجلة "الشهباء" في حلب و جريدة "العمران" في مصر.
- الشيخ إبراهيم اليازجي يصدر مجلة "الضياء" في القاهرة".
- أنشأ اليسوعيون في لبنان"المطبعة الكاثوليكية".
- الأب لويس شيخو اليسوعي يصدر مجلة "المشرق".

1899 - جرجي حبيب حنانيا و أنطوان ألونزو يباشران بالعمل على تحصيل الرخص من العثمانيين وإنشاء مؤسسات طباعة عربية وطنية، لكن عملهما لم يكلل بالنجاح إلا بعد إصدار الدستور سنة 1908.

1902 - الآباء الدومنيكان يصدرون في بغداد مجلة "إكليل الورد" بثلاثة لغات، العربية والسريانية والفرنسية.

1904 - إبراهيم زكا يؤسس صحيفة "النفير" في الإسكندرية، ثم ينقلها إلى القدس.

1905 - الآباء الكرمليون يصدرون مجلة "زهيرة بغداد" في بغداد.

1908 - باسيل الجدع يؤسس مطبعة في حيفا.
- شحادة جريس زنانيري يؤسس مطبعة في القدس.
- شكري كنيدر ينشىء جريدة "التقدم" في حلب باللغة العربية رغم أن العربية لم تكن تعلم إلا في بعض المدارس الخاصة، وكانت التركية هي السائدة.
- خليل بيدس ينشىء أول مجلة في فلسطين تحت اسم "النفائس العصرية" في حيفا والقدس، وكانت الأكثر شهرة في عصرها.
- حنا عبد الله عيسى ينشىء مجلة "الأصمعي" في القدس.
- إصدار جريدة "صهيون" للروم الأرثوذكس في القدس.
- صدرت في هذا العام جريدة "القدس العصرية" لصاحبها جرجي حنانيا، و "الدستور" التي كان يشرف على تحريرها الأستاذ خليل السكاكيني.
- بندلي إلياس مشحور وإسكندر جريس البيتجالي يصدران صحيفة "الإنصاف".

1909 - فتح الله سرسم يصدر جريدة "نينوى" في الموصل.

1910 - فتح الله سرسم يؤسس في الموصل مطبعة سماها بجريدته "نينوى".

1911 - الأب انستاس كرملي يصدر مجلة "لغة العرب" الشهرية في بغداد.

- عيسى داوود عيسى ويوسف العيسى يصدران جريدة "فلسطين" في القدس، وتعد رائدة الإعلام العربي في فلسطين.

1918 - الأب انستاس كرملي يصدر مجلة "دار السلام" في بغداد.

1919 - أصدر بندلي الياس مشحور في القدس جريدة "بيت المقدس" وهي سياسية أدبية، حررها أنطون لورنس.

- بولس شحادة يؤسس في القدس جريدة "مرآة الشرق".

1920 - يوسف العيسى ينشىء صحيفة "ألف باء" في دمشق.

- رزوق داود غنام يصدر جريدة العراق في بغداد.

1921 - أصدرت بطريركية اللاتين في القدس جريدة "رقيب صهيون"، وهي دينية سياسية مناهضة للصهيونية.

1924 - أصدر الأب بولس قوشاقجي مجلة "الكلمة" في حلب.

1925 - ميخائيل تيستي يصدر في بغداد أول جريدة هزلية انتقادية من نوعها في العالم العربي ويسميها "كناس الشوارع".

1927 - مراد فؤاد جقي يؤسس مجلة "الحكمة" في القدس.[275]

1928 - أصدر ميشال سليم نجار جريدة "المعاد" في القدس.

1929 - روفائيل بطي ينشىء جريدة "البلاد" في بغداد.

1931 - متى فتح الله جرجيس سرسم يؤسس جريدة "الإخلاص" في الموصل.

1936 - الآنسة مريم نرمي تصدر في بغداد جريدة "فتاة العرب"، وهي أول جريدة من نوعها في العراق تهتم بشؤون المرأة العربية.

لقد وظف المسيحيون قلمهم لتعرية الباطل، وعرَّض بعضهم حياته لمخاطر شتى حبا في نيل الحرية والدفاع عن حقوق الفرد وحفظ العروبة من السقوط في مهاوي التتريك. وكان الحصاد لعمل هؤلاء وغيرهم أن سقط السلطان العثماني عبد الحميد الثاني ونطق بجملته الشهيرة: **"إنني لو عدت إلى قصر يلدز لوضعت محرري الجرائد كلهم في أتون كبريت".** [276]

----

275 - يذكر فيليب دي طرازي أنها كانت تصدر أولاً في بلاد ما بين النهرين عن بطريركية السريان في دير الزعفران، ولمّا كانت الأحوال السياسية قد حالت دون استمرار نشرها هناك فقد نقلت إدارتها إلى دير مار مرقس بالقدس.

276 - مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، العدد 464 كانون الأول 2009

الفصل التاسع

الكتاب المقدس العربي

الكتاب في الجاهلية

ليس بالأمر اليسير التحقق من وجود ترجمة للكتاب المقدس في عصر ما قبل الإسلام، ويبقى هذا موضوعا شائكا يقودنا البحث فيه إلى جملة من التساؤلات، منها:

أ - إذا كان العصر الجاهلي قد عرف ترجمة عربية للكتاب المقدس، متى تمت الترجمة وما هو الخط المستخدم فيها؟ فالخط الذي نكتب به اليوم لم يكن قد تطور إلا في القرن السادس أو السابع للميلاد، حيث بزغت اللغة العربية بنهوض عدد كبير من الأدباء والشعراء.

ب - إذا كان الكتاب قد ترجم إلى العربية لماذا لا نرى ما يشير صراحة إلى وجوده في المصادر المسيحية والإسلامية؟

من البحاث الذين قالوا بوجود الترجمة العربية للكتاب المقدس في الجاهلية: الأب لويس شيخو، أنطون باومشتارك Baumstark، وألفريد جليوم Guillaume، وألفريد فوبس Voobus، والدكتور عرفان شهيد. [277] وقد قال سبرنجر Sprenger بوجود أجزاء فقط من كتب الأبو كريفا بين أيدي العرب. لكن آراء كل من ويليم رودولف Rudolph ويشوع بلاو Blau خالفتهم. فقال رودولف: **"لا يوجد أي دليل على وجود أية كتب مقدسة لليهود أو المسيحيين باللغة العربية قبل الإسلام، بل إنه كان هناك ما يتداول شفاهة فقط"،**[278] بينما افترض جورج غراف Graf وجود الترجمة في الجاهلية مع انعدام الدليل الملموس عليها.

يؤكد المفكر القبطي أبو الفرج الأسعد ابن العسال في مقدمة ترجمته للأناجيل التي وضعها سنة 1252 عدم عثوره على الدليل المنشود، فيقول: **"وأقمت مدة طويلة أطلب نسخة عربية يكون تاريخها من قبل الهجرة لتكون منقولة مما بشر به الحواريون العرب عربيا، فلم أجد".** [279] لكن من ناحية أخرى، عدم العثور على دليل الترجمة العربية لا ينفي مطلقا وجودها، وتبقى إلى حين ظهور هذا الدليل ضمن الفرضيات المحتملة. وإننا نستبعد، على أساس إشارات ومعطيات تاريخية وإيمانية، أن أشراف العرب من مناذرة الحيرة وغساسنة الشام وتغالبة الجزيرة، الذين اعتزوا وافتخروا بعروبتهم، وأنجبت بطونهم عظماء الشعراء، والذين بنو الأديرة والبيع والصوامع والأضرحة ونقشوا فيها خطهم، نستبعد أنهم كانوا يقرأون الكتاب كل يوم في كنائسهم، كما تملي عليهم الطقوس الدينية المتعارف عليها في كنائس الشرق، بلغة غير لغتهم الأم.

يستعرض الدكتور جواد علي احتمالات عدة على وجود الترجمة العربية قبل الإسلام، منها:

أ - **"يظهر من بعض روايات الأخباريين أن بعض أهل الجاهلية كانوا قد اطلعوا على التوراة والإنجيل، وأنهم وقفوا**

----

277 - المسيحية العربية، تاريخها وتراثها، الأب الدكتور ميشال نجم، ص 123 ، وأيضا الأب سمير خليل اليسوعي، التراث العربي المسيحي القديم، المعهد الاكليريكي اللاتيني الاورشليمي، الفصل الأول

278 - الكتاب المقدس في التاريخ العربي المعاصر، الدكتور القس ثروت قادس ص 29

279 - الأب سمير خليل، مدخل إلى التراث العربي المسيحي

على ترجمات عربية للكتابين... فذكروا مثلاً أن "ورقة بن نوفل" كان يكتب الكتاب العبراني ... وذكروا مثل ذلك عن "أمية بن أبي الصلت"، فقالوا إنه كان قد قرأ الكتب المقدسة، وقالوا مثل ذلك عن عدد من الأحناف. وإذا كانت هذه الروايات صحيحة، فإنها تدل على أن الجاهليين كانوا قد وقفوا على ترجمة العهدين".

ب - **"لا يُستبعَد وجود ترجمات للكتاب المقدس في الحيرة، لما عرف عنها من تقدم في الثقافة وفي التعليم، ولوجود النصارى المتعلمين فيها بكثرة... فلا غرابة إذا ما قام هؤلاء بتفسير الأناجيل وشرحها للناس للوقوف عليها. وقد لا يستبعد تدوينهم لتفاسيرها أو لترجمتها... وقد لا يستبعد أيضاً توزيع بعضهم هذه الترجمات والتفاسير إلى مواضع أخرى لقراءتها على الوثنيين وعلى النصارى للتبشير".** [280]

بغض النظر عن وجود السند الصحيح لهذه الروايات من عدمه، لنا في الكتب التي عرفها النصارى والحنفاء قبل الإسلام رأياً مخالفاً، وقد سقنا في الباب الثاني ما ينفي احتمالية حوزة عرب مكة على الكتاب المقدس بعهديه، حتى في حالة ثبات وجود الترجمة العربية في العراق وبلاد الشام.

لكن ما يلفت الانتباه قولا للمسيح اقتبسه ابن اسحق في السيرة النبوية قد يستدل منه على وجود إنجيل يوحنا باللغة العربية زمن محمد أو ما قبله. ونص الكلام: **"... من أبغضني فقد أبغض الرب، ولولا أني صنعت بحضرتهم صنائع لم يصنعها أحد قبلي، ما كانت لهم خطيئة ولكن من الآن بطروا وظنوا أنهم يعزونني، وأيضا للرب ولكن لا بد من أن تتم الكلمة التي في الناموس أنهم أبغضوني مجانا، أي باطلا. فلو قد جاء المنحمنا هذا الذي يرسله الله إليكم من عند الرب وروح القدس هذا الذي من عند الرب خرج فهو شهيد علي وأنتم أيضا; لأنكم قديما كنتم معي في هذا، قلت لكم لكيما لا تشكوا".** [281]

أخذت أقوال المسيح من الفصل الخامس عشر من إنجيل يوحنا، وهي شبه حرفية وتتضمن "منحمنا" السريانية التي استخدمت في الترجمة السريانية الفلسطينية. لكن هذا الاقتباس يبقى غير كافي لتقديم برهان قطعي على وجود الكتاب أو أجزاء منه باللغة العربية قبل الإسلام.

الترجمات من القرن الثامن وحتى يومنا

أختصرها في هذا الجدول: [282]

1 - ترجمة الكتاب المقدس عن اللاتينية ليوحنا أسقف إشبيلية في الأندلس، وهي من القرن الثامن.

2 - ترجمة عربية للأناجيل الآرامية ورسائل الرسول بولس عثر عليها في دير مار سابا بالقرب من أورد يرجع تاريخها إلى منتصف القرن الثامن.

3 - نسخة عربية لرسائل بولس الرسول عثر عليها في دير سانت كاترين بسيناء ترجع إلى القرن الثامن.

4 - ترجمة حنين بن إسحاق من القرن التاسع عن السبعينية والسريانية. بقي منها قسم من التوراة في مخطوط جاء من دير الزعفران قرب ماردين. ذكر المسعودي السبعينية. فقال: **"وقد ترجم هذه النسخة إلى العربي عدة ممن تقدم**

----

280 - المفصل في تاريخ العرب، دكتور جواد علي، فصل 82

281- السيرة النبوية، ابن هشام، الجزء الأول، صفة رسول الله

282 - المراجع لهذا الجزء: 1 - المحيط الجامع، الدكتور الأب بولس فغالي 2- الكتاب المقدس في التاريخ العربي المعاصر، الدكتور القس ثروت قادس 3 - وحي الكتاب المقدس، يوسف رياض 4 - تاريخ الآداب العربية، الأب لويس شيخو 5 - دائرة المعرف الكتابية 6 - „Die arabische Bibelübersetzung“, Paul Kahle, Leipzig 1904

وتأخر، منهم حنين بن اسحاق، وهي أصح نسخ التوراة عند كثير من الناس".[283]

5 - ترجمة العهد الجديد، وُجدت في جبل سيناء وتعود إلى السنة 867.

6 - ترجمة سعدية الفيومي، قام بها سعدية هاغاوون (891-941). من الأكيد أنه ترجم البنتاتوكس وإشعياء، وشبه الأكيد أنه ترجم أيوب والأنبياء الصغار والمزامير.

7 - ترجمة الأناجيل لإسحاق فلاسكيز في القرن العاشر عن نص من اللاتينية العتيقة. وُجدت نسخة من هذه الترجمة في مكتبة ميونيخ.

8 - عبد الله بن الفضل الأنطاكي ترجم المزامير عن اليونانية في القرن الحادي عشر، وقد طبعت الترجمة في حلب في سنة 1706 م، فعرفت بالترجمة الحلبية.

9 - العهد الجديد بالترجمتين العربية والقبطية في مخطوطة واحدة عرفت باسم "الفولجاتا الإسكندرانية"، وهي من أوائل القرن الثالث عشر.

10 - جمع هبة الله ابن العسّال في منصف القرن الثالث عشر ترجمات عربية عادت إلى القبطية واليونانية والسريانية، تم هذا العمل سنة 1252.

11 - طبع العهد الجديد كاملا بالعربية في هولندا نقلا عن مخطوطة بمكتبة ليدن، يقال إنها ترجع إلى 1342م.

12 - المزامير في خمس لغات، منها العربية، وقد طبعت في جنوب إيطاليا في 1516 م.

13 - ترجمة الأناجيل سنة 1590-1591. جبرائيل الصهيوني ونصر الله شلق.

14 - طبعت أول نسخة للبشائر الأربع في روما في 1591م، منقولة عن الفولجاتا الإسكندرانية.

15 - الترجمة المتعددة اللغات باريس 1628. عمل فيها يوحنا الحصروني، إبراهيم الحاقلاني، نصر الله شلق، جبرائيل الصهيوني. ومعهم بعض الفرنسيّين.

16 - الكتاب المقدس كاملا يطبع بالعربية سنة 1671 في روما تحت إشراف الأسقف سركيس بن موسى الرزي مطران دمشق للموارنة.

17 - العهد الجديد سنة 1703، صدر في روما باللغتين السريانية والعربية.

18 - صدرت طبعة للمزامير سنة 1725م، وتنسب إلى اثناسيوس بطريرك إنطاكية الملكي.

19 - طبع العهد الجديد مع الوصايا العشر من سفر الخروج سنة 1727 بالعربية في لندن.

----

283 - التراث العربي المسيحي القديم، الفصل 14

مع دخول الإرساليات الغربية إلى الشرق وقيام النهضة الأدبية في نهايات القرن الثامن عشر، هب المسيحيون العرب إلى نشر الرسالة المسيحية كلٍ بطريقته وضمن الدعوة الإلهية والوكالة المسندة إليه. فبادروا بإنشاء كليات لاهوتية بهدف بناء المؤمنين وترسيخ العقيدة في النفوس وتأهيل خدام للكلمة ورعاة للشعب. وكان من عصارة النهضة الأدبية ظهور ترجمات عديدة للكتاب المقدس امتازت بالجودة والدقة والبلاغة.

20 - الكتاب المقدس، ترجمة كاملة صدرت عن جمعية الكتاب المقدس الإنجليزية في ما بين 1816 و 1822.

21 - في سنة 1851 طبعت جمعية نشر المعارف المسيحية في لندن تحت إشراف وليم وطسن العهد الجديد عن ترجمة فارس الشدياق، ثم طبعت العهدين معا في 1857م.

22 - ترجمة الكتاب المقدس، وتسمّى "البروتستانتية". شارك فيها الدكتور عالي سميث، والدكتور كرنيليوس فان دايك، والمعلم بطرس البستاني، والشيخ ناصيف اليازجي، والشيخ يوسف الأسير الأزهري. وهي الأكثر انتشارا من بين الترجمات على مر العصور.

قال الأب لويس شيخو في هذه الترجمة: **"وقد عرفت الرسالة الأمريكية في هذا العهد بنشاط عظيم اشتهر بينها الدكتور عالي سميث والدكتور طمسن والدكتور فان دايك فانكبوا على درس اللغة العربية حتى أتقنوها. وكان من أثمار اجتهادهم ترجمة الكتاب المقدس. باشر فيها سنة 1849 الدكتور سميث بمعاونة المعلم بطرس البستاني فعرب قسماً من كتب موسى ثم توفي سنة 1857 فقام بتعريبها من بعده الدكتور فان دايك ولم يزل يفرغ في إنجاز العمل كنانة جهده حتى انتهى منه سنة 1864 بمساعدة الشيخ ناصيف اليازجي ثم طبع الكتاب سنة 1867. ولم تثبت فيه الأسفار المعروفة بالقانونية الثانوية. وصار لهذه الترجمة رواج كبير حتى أتت من بعدها ترجمة الآباء اليسوعيين بمساعدة المرحوم إبراهيم اليازجي فكانت أضبط نقلاً وأشمل موضوعاً وأبلغ لساناً وأجود طبعاً فصارت تعتبر كالترجمة الرسمية لجميع الكاثوليك الناطقين بالضاد".** [284]

23 - الكتاب المقدس بعهديه، الترجمة اليسوعية. شارك فيها جوزف روز، جوزف فان هام، أغوسطين روده، فيليب كوش، والشيخ ابراهيم اليازجي، يوسف البستاني، الأديب جرجس زوين. وصفها يوسف رياض بالقول: **"وهي ترجمة جميلة ودقيقة عدا استثناءات معدودة. تتميز عن غيرها بحلاوة الأسلوب وفصاحة اللفظ، لكن على حساب عدم التقيد بحرفية النص الأصلي في بعض الأحيان".** [285] وقالت عنها دائرة المعارف الكتابية: **"فجاءت ترجمتهم فصيحة اللغة وإن كانت لا تبلغ في الدقة والمحافظة على روح الكاتب ما بلغته الترجمة الأمريكية. وقد صدرت في 1986 م نسخة منقحة منها لأسفار موسى الخمسة وللمزامير وللأناجيل الأربعة وأعمال الرسل".**

24 - العهد الجديد، الترجمة البولسية، جونيه 1953. نقله وعلّق عليه الأب جورج فاخوري. وفيه قال الدكتور القس غسان خلف: **"سيبقى في دائرة الذكرى من خلال ترجمته الحيّة للعهد الجديد. فإنّ مأثرته هذه جديرة بأن تجلسه إلى جانب أفذاذ أمثال الشيخ ناصيف اليازجي وابنه إبراهيم والمرسلين عالي سميث وكرنيليوس فانديك والمعلّم بطرس البستاني والشيخ يوسف الأسير الأزهري والأب جعجع والمعلم رشيد الشرتوني الذين عملوا على نقل أسفار الكتاب المقدس إلى اللغة العربية".** [286]

25 - العهد الجديد. قام بترجمته عن الأصل اليوناني الأبوان صبحي حموي ويوسف قوشاقجي، وهذب العبارة الأستاذ بطرس البستاني. وطبع في المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت، 1969.

----

284 - تاريخ الآداب العربية، الأب لويس شيخو، ج 1 فصل 5

285 - وحي الكتاب المقدس، يوسف رياض الفصل 6

286 – جريدة النهار 1977/11/5

26 - الأناجيل، متى ومرقس، 1972 – 1975، ترجمة الأنبا غريوريوس أسقف التعليم والبحث العلمي بالكنيسة القبطية الأرثوذكسية.

27 - الكتاب المقدس، كتاب الحياة، ترجمة تفسيريّة. صدر العهد الجديد سنة 1982، والنسخة كاملة سنة 1988.

لاقت هذه الترجمة انتقادات من علماء مسيحيين عرب. فقالوا، أنها تضعف من قوة الرسالة الإنجيلية. بينما رأى البعض أنها ضرورية، وأن الترجمات جزء لا يتجزأ من استمرارية النهضة شرط عدم الإخلال بالمعنى اللاهوتي والفيولوجي (علم اللغة المقارن).

28 - العهد الجديد، كليّة اللاهوت الحبرية، جامعة الروح القدس، الكسليك، لبنان. 1987 – 1992.

29 - في 1980 م أصدر اتحاد جمعيات الكتاب المقدس ببيروت ترجمة جديدة للعهد الجديد معنونة ومذيلة بجدول للشروح.

30 - الترجمة المشتركة للكتاب المقدس كاملا. صدرت ما بين 1979 و 1993 عن اتحاد جمعيات الكتاب المقدس. وهي ترجمة عربية وضعتها لجنة مؤلفة من علماء كتابيين ولاهوتيين ينتمون إلى مختلف الكنائس المسيحية، الكاثوليكية و الأرثوذكسية و الإنجيلية.

31 - الترجمات الشعرية والسجعية. ومنها ترجمة الأسقف الأندلسي الحفص بن البر القوطي في القرن العاشر. منها المزامير، وهي جوهرة من جواهر الأدب المسيحي العربي. وفي القرن التاسع ترجم ابن داود يشوع وغيره الأناجيل المقدسة سجعاً، ثم في القرن الثالث عشر وضع عبد يشوع الصوباوي، مطران نصيبين ترجمته الشهيرة بقافية واحدة، وهنا مقطعا من إنجيل متى الفصل العاشر:

"وقال المخلص لتلاميذه والرفاق: لا تظنوا أني أتيت لأوقع في الأرض الصلح والوفاق. لم آت لأوقع السلام، بل الحرب والشقاق. فإني أتيت لأجعل الرجل المؤمن يخالف على أبيه ذي النفاق. وأباعد بين الابنة المؤمنة وأمها الكافرة، والكنة وحماتها بالفراق. وأعداء الرجل آل بيته الفساق. فمن أحب أبا وأما أفضل مني، فليس هو أي بأهل الإعتلاق. ومن أحب ابنا أو ابنة أكثر مني، فما هو لي من أهل الميثاق. ومن لا يحتمل صليبه ويتبعني، فما هو أي من أهل الميثاق. من وجد نفسه، فقد أهلكها، وعرضها للانمحاق، ومن أهلك نفسه، فسوف يجدها بجوار الخلاق... وكل من سقى أحد هؤلاء الأصاغر شربة ماء بارد، عذب المذاق. باسم تلميذ ذي استشراق، الحق أقول لكم: أنه لا يضيع أجره الذي فاق. من شاء أن يتبعني، فليكفر بنفسه، ويولي الدنيا الطلاق، وليأخذ صليبه، وليكن من اقتفاء اثري على لحاق". [287]

*****

خلاصة:

إن الدور البارز الذي لعبه المسيحيون في نهضة المشرق العربي، وعملهم الدؤوب من أجل نموه وتقدمه في كل المجالات قد دمغا التاريخ العربي بطابع لا ينتهي ولا يموت، ولن يحول ذلك الطابع عن وجه العروبة مهما بذل علماء التاريخ من جهد إلى طمس معالمه.

---

287 – "اناجيل عبد يشوع الصوباوي المسجعة" تحقيق ودراسة سامي الخوري، راجع أيضا الأب سمير خليل اليسوعي، عن: التراث العربي المسيحي، الفصل الخامس

ولكون هذا الدور يرجع إلى عصر ما قبل الإسلام، وهو العصر الموصوف بـ "الجاهلية"، والذي ربطه الكثيرون ظلما بالجهل والوثنية والكفر، فشاع وتعمم الوصف ليشمل جميع أبناء ذاك العصر بلا استثناء، فإن من الإنصاف استبعاد المسيحيين في التاريخ العربي من هذا التعميم.

لقد ترك لنا أجدادنا تراثا أدبيا وعلميا ودينيا هو غاية في الغنى، فكان لنا مدعاة للاعتزاز والفخر. لكن لا يغرب عنا، بأن روح العطاء للعالم يجب أن يستمر في كل العصور وعلى مر الأجيال، وأن الله يبحث اليوم، كما بحث في الماضي، عمن يحملون نور الإنجيل ليبعثوا في العالم إشعاع العلم والهداية والإيمان.

المراجع

تنويه: معظم المراجع المعتمد عليها هنا هي نسخة الكترونية وقد تختلف في ترقيمها عن المطبوع والمجلد.

- آثار البلاد وأخبار العباد، زكريا بن محمد بن محمود القزويني
- أخبار مكة وما جاء فيها من آثار، أبو الوليد الأزرقي
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير
- اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية
- الإحكام في أصول الأحكام، ابن حزم
- الإسلام والمسيحية في الميزان، شريف محمد هاشم
- الأصول المسيحية في شبه الجزيرة العربية، جوزف زيتون
- الأغاني، أبي فرج الأصفهاني
- البخلاء، الجاحظ
- البداية والنهاية، ابن كثير
- التأثير الأوربي على المسيحية في سوريّة خلال الحكم العثماني، الأرشمندريت اغناطيوس ديك
- التراث العربي المسيحي القديم، المعهد الاكليريكي اللاتيني الأورشليمي، بيت جالا
- الجامع في تاريخ الأدب العربي – التاريخ القديم، الأب حنا الفاخوري
- الحضور المسيحي في حلب خلال الألفين المنصرمين، الأرشمندريت اغناطيوس ديك
- الخطط والآثار، تقي الدين المقريزي
- الدرر النفيسة في تاريخ الكنيسة، البطريرك افرام الأول برصوم
- الروض الأنف، أبو قاسم السهيلي
- السيرة الحلبية، علي بن برهان الدين الحلبي
- السيرة، ابن هشام
- الشهداء الحميريون العرب في الوثائق السريانية، البطريرك اغناطيوس يعقوب الثالث
- الصحافة العربية نشأتها وتطورها، أديب مروة
- الصحافيون المسيحيون الحلبيون، الأرشمندريت أغناطيوس ديك
- الطبقات، ابن سعد
- العرب- تاريخ موجز، فيليب حتي
- الفكر العربي الديني المسيحي، مشير باسيل عون
- القبائل العربية المسيحيّة في بلاد الشام في عهد صدر الإسلام، الأرشمندريت اغناطيوس ديك
- القرآن
- الكتاب المقدس
- المحيط الجامع، الدكتور الأب بولس فغالي
- المراكز الثقافية السريانية، غريغوريوس يوحنا إبراهيم
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي
- المسيحية العربية، تاريخها وتراثها، الأب الدكتور ميشال نجم
- المسيحية العربية وتطوراتها، دكتورة سلوى بالحاج صالح
- المسيحية في سوريا، الارشمندريت أغناطيوس ديك
- المسيحية والحضارة العربية، الأب الدكتور جورج شحاته قنواتي
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الدكتور جواد علي
- المنجد في الأعلام

- النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، الأب لويس شيخو
- تاريخ ابن خلدون
- تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان
- تاريخ الآداب العربية، الأب لويس شيخو
- تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان
- تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، يوليوس فلهاوزن
- تاريخ الصحافة العربية، فيليب دي طرازي
- تاريخ الطبري
- تاريخ القرآن، تيودور نولدكه
- تاريخ الكنيسة، جون لوريمر
- تاريخ اليعقوبي
- تاريخ سوريا الدنيوي والديني، المطران يوسف دبس
- تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، فيليب حتي
- تاريخية الدعوة المحمدية في مكة، هشام جعيط
- تخريج الأحاديث الصحيحة، الشيخ ناصر الدين الألباني
- جريدة السفير
- جريدة النهار
- خصائص التراث العربي المسيحي، الأب سمير خليل اليسوعي
- دائرة المعارف الكتابية، دار الثقافة
- دفاعيات مسيحية في العصر العباسي الأول، نداء الرجاء
- رجال المعلقات العشر، مصطفى الغلاييني
- سطور مستقيمة بأحرف متعرجة، الدكتور طارق متري
- شعراء النصرانية قبل الإسلام، الأب لويس شيخو
- صحيح البخاري بشرح الكرماني
- عصر السريان الذهبي، الفيكونت فيليب دي طرازي
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة
- فترة التكوين في حياة الصادق الأمين، خليل عبد الكريم
- فتوح البلدان، أحمد بن يحيا بن جابر البلاذري
- في الفكر الديني الجاهلي، د. محمد إبراهيم الفيومي
- فيض القدير شرح الجامع الصغير للسيوطي، الإمام عبد الرؤوف المناوي
- قراءة نقدية للإسلام، د. كامل النجار
- قريش من القبيلة إلى الدولة، خليل عبد الكريم
- قس ونبي، أبو موسى الحريري (الأب جوزيف قزي)
- قمصان الزمن فضاءات حراك الزمن، د. جمال الدين الخضور
- كتاب الحيوان، الجاحظ
- مروج الذهب، المسعودي
- معجم البلدان، ياقوت الحموي
- مقالة في الإسلام، جرجس سال
- مقدمة أبن خلدون
- وحي الكتاب المقدس، يوسف رياض
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلقكان

„American Heritage Dictionary“
„Bible Commentary”, Adam Clarke

„Bible Commentary”, Albert Barnes
„Bible Commentary”, Matthew Henry
„Christliche Araber vor dem islam“ Theresia Hainthaler
„Die arabische Bibelübersetzung“, Paul Kahle, Leipzig 1904
„Die Situation der Christen auf der arabischen Halbinsel“ Georg Dittrich, Fürth
„Die syro-aramäische Lesart des Koran“ C. Luxenberg